بغداد

فيقودنا الى الحي المسيحي (عقد النصارى)، وذلك من خلال دهاليز طرقات إتجاهها مواز للنهر تقريباً.

نصل القنصلية. يبدو مسيو دي سارزيك[١٧٤] مستعجلاً جداً للعودة الى الريف، حيث إنه في عطلة، وقد أرغمه وصول المونسنيور ألتماير على تركه بضعة أيام. لذا لم يكن له أن يعنى بإيجاد بيت نستطيع أن نقيم فيه. «ثمه فندق –قال لنا– يديره يوناني، غير بعيد من هنا، سأعمل على أن يقودوكم إليه». قدّم لنا الرسائل التي كانت قد وصلتنا الى القنصلية، ثم مضى فوراً لكي يهتمّ بتهيئة سفره. وقد بدا لنا مسيو دي سارزيك كذا مستعجلاً، بحيث إننا إذ خشينا أن نكون بدون اللياقة اللازمة، إستأذنا في الإنصراف بعد زيارة بضع دقائق. يطلب الى أحد القواصين أن يرافقنا، ويضيف وهو يغادرنا:

«إن كنتم بحاجة ما لدى السلطات، فلا تعتمدوا على وساطتي، لأني لست بوضع جيد مع الوالي، ومع نائب الوالي، وكل الموظفين. حاولوا أن تدبروا أنفسكم

(١٧٤) خلف مسيو دي سارزيك مسيو بيرتييه Peretié في منصب قنصل (فرنسا) في بغداد، وبدأ بحفريات، غير بعيد عن بغداد، في تللو (Tell Ho) نبهه إليها أحد السكان، إعترافاً له بالجميل لخدمة قدمها له، وقد كشفت تنقيباته فعلاً عن لقى مثيرة حقاً، فهي تحمل كتابات هيروغليفية (تصويرية) تسبق الكتابة المسمارية (الرحالة). وبشأنه أنظر الهامش ١٤٢.

بأنفسكم، بواسطة الإكراميات (البقشيش)». فننسحب عندذاك من دون ما إلحاح، ونحن مستغربون من لقاء كهذا. في أي بلد آخر لم أكن لأستقبل ببرودة كهذه من قبل أي من المواطنين[١٧٥].

يقودوننا الى الفندق الشهير، الذي لايتردد في إتخاذ إسم له هو (فندق أوروبا). لايعرف صاحبه ماعدا اليونانية والعربية. كل ما تخلص إليه، هو إنها الساعة الواحدة، وإننا جياع. يقدم (صاحب الفندق) ذاته واضعاً إياها تحت تصرّفنا بكل طيبة خاطر، ويعطينا أفضل غرفة[١٧٥*].

يأتينا كلداني سائلاً أن يعمل لدينا كدليل وترجمان حتى طهران. يسلمنا بطاقة من القنصل تحمل هذه الكلمات: «مسيو دي سارزيك يوصي السيدين بنديه وهاملن بالمدعو (نانو نوري) حامل الكتابة، إن كانا بحاجة الى ترجمان». أثناء المحادثة القصيرة التي كانت لنا مع مسيو دي سارزيك، حدّثنا فعلاً عن هذا الرجل الذي يدعي إنه كان في خدمة (مسيو گوتييه)[١٧٦]، الرحالة الشاب من ليون. وكان الدومنيكيون في الموصل قد حدثونا عنه. وكان مسيو گوتييه معجباً به، حتى إنه أكرمه بفرس عندما تركه. غير إن ثمّة علامة شك: لمَ لم يحتفظ هذا الرحالة الذي ظل يقطع البلاد بترجمان جيد كهذا؟ يدّعي نانو إنه مرض. وبما إنه لايجب أن يكون المرء معقداً في بغداد، فإننا نقبل نانو منذ اليوم، معتمدين عليه لكي يساعدنا في أمر عبور أمتعتنا مكوس (كمارك) بغداد.

نمضي بعد الغداء لزيارة المونسنيور ألتماير والآباء الذين يرافقونه. لقد إستغرق هؤلاء المرسلون يومين أكثر منا في ركوب دجلة، فقد لحقت بهم ريح شديدة جداً مدة ست وثلاثين ساعة، بحيث أنهم أرغموا على التوقف على الساحل منتظرين هدوء الريح.

(١٧٥) سواء في الموصل أم في بغداد، لايلقى بنديه إستقبالاً حميماً من قبل مواطنيه والمسؤولين الفرنسيين، فهل من حقه أن يلوم الآخرين، والغرباء، ويتهمهم بشتى التهم كما فعل مراراً في مذكراته؟

(١٧٥*) أنظر الهامش ١٩٤.

(١٧٦) M. Gauthier

ونقصد السيد (خوري) وكيل القنصلية الذي يستقبلنا بلطف كبير. إنه مولود في دمشق، ومن أقارب مسيو سيوفي. يصل من موقع فرنسي في الزنزيبار حيث كان في موضع إعتبار مرموق لدى السلطان.

سوق بغدادية

نعود الى الكلك، مجتازين الأسواق من جديد، ونقوم بإنحراف بسيط لكي نتصل بالمصرفي (أصفر)، منبّهين إياه إننا سنطلب إليه في الغد مبلغاً كبيراً بموجب كتاب القرض (الكمبيالة). نسير فوق ظهور حمير بيضاء ضخمة الحجم (حساويات)، مكسوة بأقمشة غريبة بلون الحناء[١٧٧]. تستأجر بسعر معتدل جداً. إنها عربات بغداد. تسير بشيء من المهابة اللطيفة. ندفع هذا، وندفع ذاك، حتى نصل الى الكلك. فنأخذ معنا أغراضنا النفيسة جداً، وندع القارب يمخر في الماء تحت حراسة يوفان وبطرس والجند، فهو سيرسو في مكان أبعد، على ساحل رملي صغير، وسط المدينة حيث سنتلقاه. أما زيارة المكوس فهي على جسر القوارب، حيث سيكون نانو موجوداً، وسيمنح الهدايا الضرورية تجنّباً للإزعاجات.

نجتاز مرة ثانية، على ظهور الحمير، الثكنات حيث الجنود يقومون بمناورات وتمارين على الطريقة الفرنسية. إن هذه المعسكرات هي كبيرة ومشيّدة بشكل جيد، وهي مشرفة على دجلة. والمستشفى العسكري في جهة، بحيث يبدو المشروع برمته وفق تصميم ذكي.

نجد الكلك في المكان والموعد المتفق ونزلاؤه، وهم إثنان أو ثلاثة من الأوروبيين

(١٧٧) إن صبغة الحنّاء ذات مظهر ولون شرقيين، فالنساء يصبغن الأيدي ويرسمن أشكالاً على الوجه والجسم. والرجال يصبغون الشعر واللحية والأظافر. والحيوانات نفسها تصبغ بهذه الصبغة التي كثيراً ما تكون ألوانها الحمراء جميلة (الرحالة).

المتشردّين الذين لانتمكّن من التعرّف على جنسيتهم بوضوح، وهم يحاولون هنا مواصلة حياتهم المشوشة.

شارع بغدادي

لا يوجد سوى ثلاثة فرنسيين في بغداد، أحدهم هو مسيو موجيل (M. Mougel) مهندس مناجم متميز، وموظف لدى الحكومة التركية. والثاني يدير معمل الرايات العسكرية، والثالث قبطان بارجة سابق.

٢٥ تشرين الأول (أكتوبر)

معنويات فندق أوروبا بحاجة الى المزيد من إهتمام، لا ريب في ذلك. فقد لعبوا طوال الليل. وفي الساعة السادسة، إذ خرجت من غرفتنا، لمحت من خلال أغطية شباك مشرف على الشرفة ستة أنفار، يضيئهم مصباح مدخن، جاثمين حول سجادة خضراء. ومضيفنا بين اللاعبين. إنه من جنسية يونانية.

نمضي صباحاً لزيارة الآباء الكرمليين الساكنين في بغداد منذ زمن طويل، بعد أن خلفوا الكبوشيين الإيطاليين[١٧٨]. يحدّثنا هؤلاء الآباء عن كل الصعوبات التي حصلت لهم إبّان تشييد الكنيسة، لاسيما لدى محاولتهم وضع ناقوس في منارتها، كما يقول المسلمون حين يتحدثون عن برج الأجراس.

لدى خروجنا من عند الكرمليين، ندخل الى كنيستهم حيث كان يقام القداس. ليس فيها كراسٍ ماعدا في مؤخرة الكورس (الجوق). أما القسم الأكبر، حتى مصطبة

(١٧٨) منذ تأسيس أسقفية بابل اللاتينية في بغداد، سنة ١٦٤٨، أستقر بعض المرسلين من رهبان كبوشيين وكرمليين فيها. ويعزى وجود الكرمليين في بغداد الى الراهب عمانوئيل وللقديس ألبير الذي عمل في بلاد ما بين النهرين منذ سنة ١٧٢٨ وحتى ١٧٧٣، وكان قد سبقه الكرملي يوسف ماري ليسوع سنة ١٧٢١. وكان عدد الكرمليين في بغداد أربعة سنة ١٨٨٥ (أنظر: الكرمل، تأليف الأب ألبير أبونا، بغداد ١٩٧٨)

المذبح، فمفروش بالحصران، يأتي المؤمنون فيركعون فوقها، الرجال الى اليمين والنساء الى اليسار. ويجلس هؤلاء منعزلات، ومنظرهن جميل، فأنت تَراهُنّ بأغطية الرأس الزاهية الألوان تزيدها أشعة الشمس لمعانا إذ تنفذ من خلال الشبابيك.

من جملة الكرمليين الذي سكنوا بغداد من هم ذو منزلة، بحيث أنهم حين قدموا الى پاريس كانوا يعظون بكل جدارة. يحكى بأن أحدهم، إذ كان يتحدث في كنيسة سيدة الإنتصار (في پاريس)، فاه بعظة متميزة حول بلبلة الألسنة والديانات لدى الشعوب المجاورة لبرج بابل، بحيث أن أهالي الخورنة قدّموا له تمثالاً لمريم العذراء. ونذر الأب المحترم أن يحمل هو بنفسه هذا التمثال حتى قمة الهضبة التي يرون فيها قاعدة برج بابل. فلما رجع الى بغداد، أكمل نذره بجهد كبير ودون خلّو من أخطار جسيمة.

بعد بضع سنوات، جاء أهالي البلد معلنين لقنصل فرنسا إنهم قد إكتشفوا قطعة عجيبة فوق هضبة بابل، فوعدهم القنصل بمكافأة لمن يحمل إليه تلك القطعة، فحملوا إليه التمثال الذي نعرف تاريخه، فإستدعى الى العشاء الأب الذي كان مايزال يسكن في بغداد، واعداً إياه بأنه سيريه بعد الطعام قطعة ذات نفع ديني وجدت في برج بابل، ما عتم أن عرف فيها المسكين تمثاله، إنما بسبب عدم قدرته وأستعداده، لم يتمكّن من إيصالها الى موضعها.

لن ألحّ في وصف بغداد، فقد قام بذلك بشكل كامل مسيو دي ريفوار سنة ١٨٨٤ وقد نشر في هذا العام عينه تقرير في (حول العالم) بقلم مدام ديلافوا التي زارت هذه المدينة قبل سنتين[١٧٩]. وقد كان من حظ مدام ديلا فوا أن تكون فيها أثناء قنصلية بيريتييه الذي كان يسكن في بغداد مع إمرأته وبناته، وبواسطتهم كان لها أن تعرف كل المعلومات والأخبار المطلوبة. لذا سأكتفي بتقديم جولاتي في بغداد، بإيجاز.

بغداد هي المركز الأكبر لتموين القوافل، ورأس خط الزوارق البخارية التي تمخر في دجلة. جعلتها تركيا عاصمتها ثانية، فلها حكومة عسكرية لاتراجع سوى وزير الحربية.

(١٧٩) وردت هذه الأسماء هكذا: M. de Rivoire (Rivoyre), Les vrais Arabes et Ieur pays; Tour du monde: Mme Dieulafoy.

وبغداد لاتشبه القسطنطينية مركزاً، ومساحة، ومدنية فهي واحة كبيرة، وغابة عجيبة من النخيل الذي ينمو وسط الصحراء وعلى ضفاف دجلة. تحيط بها الرمال من جميع الجهات مسافة أيام من السير، فالصحراء في الشمال الغربي، وفي الجنوب أهوار شط العرب، وفي الشرق جبال كُردستان على بعد مسافة طويلة.

بعد أن إجتزنا أسوار التراب التي تحيط ببساتين النخيل والرمان والأشجار المثمرة الأخرى، خرجنا من التحصينات من باب صغير تحرسه سيطرة بضعة جنود. إستدرنا الى اليسار، محاذين الأسوار من الخارج، التي هي في حال لاتصلح للدفاع. فالأسوار الترابية والمشيّدة بالطابوق غائرة في الخنادق التي قد إمتلأت تقريباً، غير أن ما تبقّى منها يعطينا فكرة عالية عما كانت عليه المدينة من أهمية في غابر مجدها. الزوايا الرئيسة للأسوار مشيدّة بأبراج مرتفعة، تحمل معظمها أشرطة نقوش تبرز فيها بوضوح آيات قرآنية. وثمّة مساحة كبيرة فارغة، كأنها ساحة كبيرة للأسلحة أمام هذا الجزء من الأسوار، وهنا وهناك نخلتان أو ثلاث تحتضن مسجداً أو مرقداً. أما المقابر فخارج المدينة، ومررنا بمقبرة ضخمة وفسيحة ونحن خارجون.

نصل أمام باب الطلسم الشهير الذي منه دخل مراد الرابع منتصراً، الى بغداد[١٨٠]. إنه باب مبني، فثمّة عادة تقضي ببناء الباب الذي منه يدخل سلطان منتصر الى مدينة محصنة.

نلمح في المدينة، على بعد، القبة المسطحة لمرقد عبدالقادر التي شيدها مراد الرابع بعد إستيلائه على بغداد[١٨١]. وأبعد منها، جامع الشيخ عمر[١٨٢]، وجامع الأميرة زبيدة[١٨٣]، المرأة المفضلة من قبل الخليفة هارون الرشيد، والتي كان لها التأثير الكبير على هذا الخليفة المقتدر.

(١٨٠) يكتبه بنديه هكذا: Talim ويقصد به باب الطلسم. وأشهر أبواب بغداد: الأبواب الأربعة: البصرة، الكوفة، خراسان، الشام، ثم الباب الأبيض، الباب المظلم، باب الأعظم. أما مراد الرابع (١٦٢٢-١٦٤٠) فقد إعتلى العرش والبلاد في فوضى من جراء إنهماك أسلافه في أمور خاصة، فأصبحت بغداد تحت السيطرة الصفوية، وفشل خسرو شاه في إسترجاعها، فجهز مراد الرابع حملة أولى ثم ثانية، حتى نجح في إسترجاعها عام ١٦٣٨.

(١٨١) قبة مرقد الشيخ عبدالقادر (الكيلاني)، شيدها مراد الرابع.

(١٨٢) جامع الشيخ عمر.

(١٨٣) جامع الست زبيدة.

إذ نسير بإمتداد التحصينات، نجتاز حي ثكنات الفروسية الرحبة، حتى نعود من باب الشمال. نحاول أن نزور الجوامع، أو رؤية المداخل على الأقل، إذ يستحيل الدخول الى الداخل، فنمر على التوالي أمام جامع عبدالقادر، وجامع عبدالرحمن وجامع الشيخ يوسف[١٨٤]. جميعها مشيدّ بالطابوق، ومكسوّة بمربعات من الخزف الأزرق، والأسود، والأصفر، والأبيض، مشكلّة هكذا رسوماً لطيفة جداً في أغلب الأحيان، بحيث تعطي هذه الرسوم مظهراً شفافاً وجميلاً للمنائر.

٢٦ تشرين الأول (أكتوبر)

نعزف عن زيارة (بابل)، إذ ينبغي إعداد قافلة (كروان) خاصة، والوقت الذي نستغرقه لذلك سيرغمنا على أن نضحي بجزء من رحلتنا الى كُردستان.

نتجوّل في الأسواق. إنهم يطالبوننا بأسعار مرتفعة جداً، بحيث إننا نكتفي بمشاهدة ما نرغب فيه، ثم نبعث بشخص ثالث لكي يشتريه. إذ كنت أتعامل في الموصل مع يهودي بشأن ثوب موشّى، كان جوابه للمترجم: «أنا أعرف جيداً بأنه لايسوى المبلغ الذي أطلبه، لكن، بما أن هؤلاء السادة يهوون البضاعة، فإني أضاعف الثمن!»

إذ أعود الى الفندق، أرى صاحبه مغضباً. هذا الصبح، إذ دخلت غرفتي لكي آخذ غرضاً نسيته، وجدت خادمين يعبثان بأمتعتي، فأبعدتهما ركلا. لقد شكياني الى سيّدهما قائلين إني ضربتهما دونما مبرر. ولحسن حظنا، يأتي السيد خوري في اللحظة التي ندخل فيها الى الفندق، وبوسعه أن يشرح الحقيقة. لقد كان علينا بعد ذلك أن نعطف على هذين المسكينين، وأن نتشفع لهما.

علينا أن نتعشّى هذا المساء لدى السيد أصفر صرّافنا. لذا خصصنا فترة بعد الظهر لزيارة الكاظمية ومرقد الأمام موسى.

(١٨٤) ورد ذكر جامع عبدالقادر الكيلاني، وجامع عبدالرحمن، وجامع الشيخ يوسف (الحسن). بشأن بغداد وخططها، أنظر: خطط بغداد وأنهار العراق القديمة لمكسمليان شتريك، ترجمة د. خالد إسماعيل علي؛ وخطط بغداد في القرن الخامس الهجري للدكتور جورج مقدسي وترجمة د. صالح أحمد العلي؛ وبغداد مدينة المنصور المدورة لطاهر مظفر العميد، وبغداد مدينة السلام، الجانب الغربي، مجلدان، تأليف د. صالح أحمد العلي والخ.

بعد الغداء، وبرفقة نانو، نعبر النهر على جسر قوارب. وبعد بضع خطوات، وسط أزقّة قذرة في الضفة اليمنى، نصل الى ساحة صغيرة حيث يوجد تراموای[١٨٥]. العربة الحقيرة تشبه العربات القديمة المهملة عبر الطرق، بعد إستهلاكها، يستخدمها بعض المتسكعّين كمأوى. الأبواب وزجاج الشبابيك غير موجود، وبعض الشبابيك تترك أشعّة الشمس تدخل من خلال العارضات المكسورة، واللوالب شبه محطّمة.

كل نصف ساعة، حصانان مربوطان يقودهما حوذي لايجيد السوق. يحاول السائق أن يعطينا عملة مزيفة. الخط يسير بعض الوقت في شارع مزدحم جداً، ثم بإمتداد جدران حيطان طين تحيط بالبساتين، فنترك بغداد.

ندخل سهلاً محرقاً، وقبل بلوغنا الصحراء التي تمتد غرباً بما لايحدّها النظر، يرجونا السائق مرتين أن ننزل، لأن السكة قد تكسرّت بمسافة عشرة أمتار، وغارت العربة في بالوعة بحيث أن محورها راح يسير على الأرض. منذ ستة أشهر والخط على هذه الحال، أي منذ حدوث عاصفة في شهر أيار الماضي. وإدارة المشروع تجد راحة أكبر في الرجاء الى المسافرين أن يترجّلوا في الأماكن الصعبة، من القيام بالتصليحات اللازمة. وفي نقطة أبعد من ذلك نجد الخط قد غار في الأرض، فيقوم فريق من الرجال بسند العربة ومنعها من السقوط. طول الخط أربعة كيلومترات، وتقطع العربة هذه المسافة بخمسة وعشرين دقيقة، رغم هذين التوقّفين، لأن الحوذي، طيلة المدة الأخرى، يضرب الجياد بالسياط دونماً إهتمام بما تسببه من ضوضاء.

قبل الوصول الى الكاظمية بقليل، نتبع ضفاف دجلة، ونعبر غابة نخيل عجيبة، حيث عدة خنزيرات خشبية ذات صرير جهنمي، تجرّها ثيران وجياد.

نصل مدخل الضاحية، فيتوقف الترامواي. نغادره لكي نتوجه الى مرقد الجامع المقدس، الإمام موسى الذي يقال إنه مدفون في الكاظمية، هو الإمام الأول الذي يقرّه الشيعية. أما الإثنا عشر السابقون فيقرّهم السنيون. إنه مكان حج يحترمه الفرس، وهم من يؤلفون معظم القرية، إضافة الى بعض اليهود. ولايوجد فارسي واحد يقصد كربلاء دون أن يأتي لتقديم الإكرام في الكاظمية.

(١٨٥) مايزال المقدمون في السنّ يتذكرون (تراموای) الكاظم. وصف بنديه دقيق، إنما فيه من السخرية ورثاء الحال الشيء الكثير.

الجامع موضع إحترام كبير، بالنسبة للشيعة. ونظرة الأوروبي وحدها كافية لكي تدنّسه[١٨٦]. كنا قد وصلنا القبة، مندهشين حيال هذا البناء. إذ إقتربنا من المدخل، بدأنا نسمع كلمات غير مستحبّة، وكان من السهل أن نعرف بإنها موجهة إلينا. وإزداد اللغط بعد بضع لحظات، وأحاطوا بنا، فبحثت عن نانو. لقد نجا بنفسه، عارفاً الى أيّ حد بوسع التعصّب أن يبلغ. لذا إبتعدنا، متجنبيّن بصعوبة مضايقات الجمهور.

الجامع زاهٍ، وهو مكسوّ بالخزف ذي الأشكال الملوّنة بالأزرق والأسود والأبيض والوردي، على شكل الورود، ومزيّن بقباب ومنائر مذهبّة. والمبنى مربّعة، في نهاية فناء تحيطه أروقة، وتختلط جدران رباط الفناء ونهاياتها بجدران المبنى. الأرضية مرتفعة بفضل قبّتين ذهبيتين ضخمتين على شكل الفطر. في الزوايا الأربع، أربع منائر، أعلاها مذهّب، ومجمل البناء جميل وغني، والتنوّع الذي فيه دقيق ولطيف. لقد أوحى إليَّ بمعالم الهند الجميلة.

حين نصل الى الترامواي نلقاه قد رحل. بعد ساعة أخرى يغادر التالي من الكاظمية. وبما أن ثمّة مؤجرّي حمير قرب المحطة، فإننا نستأجر ثلاثة حمير تقلّنا الى بغداد. نستغرق ثلاثة أرباع الساعة. لم نكن تعساء فوق تلك السرج العريضة ذات السجاد ومن دون ما ركب، بحيث تتدلّى الأرجل. تركنا الحمير حال وصولنا الى مدخل الضاحية، وقد كان حراس الحيوانات يتبعوننا راكضين بشجاعة. إستقلّينا قفّة لكي نعبر بها النهر، وأمخرنا حتى الساحل القريب من فندقنا.

بعد تغسيل سريع، إذ ليس لنا ثياب كثيرة، مضينا لدى (أصفر). إبنه فقط يتكلم الفرنسية. وكان مضيفنا قد دعا أيضاً مسيو لازار، وهو طبيب نمساوي يعرف لغتنا قليلاً. أراد أن يكون العشاء أوروبيا، وكانت الصحون تتعاقب بلا عدّ، يصاحبها ما يشبه البوردو، وما يشبه الشمبانيا، والبيرة. في إحدى اللحظات إنتابتنا كل هموم الدنيا، وكان علينا، أنا وهاملن، إن نحافظ على إتزاننا، فقد بقي من كأسي قليل من البيرة، وسكب الخادم سهواً قليلاً من الخمر، وإذ رأى أنه أخطأ

(١٨٦) مبالغة أخرى عوّدنا عليها الرحالة في مذكراته، فيها شيء من الصحة بشأن عدم السماح لغير المسلم زيارة الجامع في السنوات الماضية.

القنينة، أفرغ محتوى ما في كأسي في قنينة الخمر، وبعد لحظات صبّ من هذه الخمرة للمدعوين[١٨٧]. كانت بداية العشاء بشوربة خاصة، أعقبها صحن لحم مسلوق، ثم ثلاثة (صحون لحم) مقلي، الواحد دجاج، والثاني حجل، والثالث دراج، ثم الأضلاع، والسردين. وكفاكهة تناول كلّ منا صحناً كبيراً من الكريم الأبيض المحلّي، له طعم الطحين، كان موضوعاً أمامنا منذ بداية الطعام، ثم الفواكه، إنما من دون تمور، فإنها أنواع إعتيادية، مع إننا كنا نأمل أن نأكل أنواعاً شهية. لقد كانت الفواكه المقدمة: البطّيخ، الرقّي، الخيار، الرّمان، وبضع تفاحات. وبعد هذه الوليمة الحافلة، مضينا الى الديوان، حيث قدمت لنا القهوة بالفناجين.

يحكي لنا السيد أصفر إنه قد خدع بالشهير مسيو دوفورنو[١٨٨] الذي إستغلّ العديد من الأوروبيين من آسيا الصغرى وفارس. لقد أقرضه مبلغاً من المال، وذلك بتوصية من القنصل الذي كان قد إستضافه.

٢٧ تشرين الأول (أكتوبر)

نمضي الى البريد صباحاً، لأننا مستغربون من عدم إستلامنا جواباً على البرقيات التي أرسلناها منذ أربعة أيام. ثمّة طريقتان لإرسال الرسائل الى أوروبا: البريد التركي والبريد الإنكليزي. الأول والثاني يسلكان طريق الصحراء، فيمضيان حتى (هيت) على الفرات، ثم يعبران الصحراء على جمل سباق، فيصلان الشام خلال إثني عشر يوماً. هذان البريدان هما الأسرع، كلاهما يحملان أخباراً جديدة نسبياً، إلا أن الطريق التي يسلكانها خطرة، لذا لايحمل البريد كل ما له قيمة، إذ أنّ الحدّ من القرصنة محاولة شبه مستحيلة، والحكومة لم تدبّر أي شيء لحماية مؤسسة أوروبية، لذا فمع كيس البرقيات والرسائل، يحمل الحيوان لوازم ساعي البريد ولوازم الحيوان نفسه، أي أكياس طحين كبيرة يلتهمها ثم يجترّها وهو سائر.

وثمه بريد آخر ينطلق من بغداد، ويصعد الى الموصل، ثم عبر دياربكر وموش حتى يبلغ أرضروم وطرابزون. إنه البريد الداخلي والمحلي.

(١٨٧) أنّى لآداب المائدة الفرنسية أن تتقبل ذلك؟ إذ لكل أكلة شرابها الخاص، ولكل شراب كأسه، ووقته، ودرجة حرارته... وبنديه يعطي أهمية كبيرة للطعام.

(١٨٨) Defournoux.

وهناك طريقة رابعة، بواسطة الزوارق الإنكليزية. إنها الأشد أماناً بالنسبة لما له قيمة، إلا أن الضريبة هي ضعف الطريقة التركية، فإن هذه الأخيرة قد قبلت بتسعيرة المعاهدات البريدية.

بعد الغداء، ورغم تهديدات الطقس، نتجوّل مرة أخرى في المدينة والأسواق. ونمضي لزيارة قنصل فارس الذي قد سكن مدة طويلة في باريس. مسيو موجيل، المهندس الفرنسي، غير موجود في بغداد. إننا نأسف لذلك. مقابل ذلك، يطيب لنا أن نلتقي بمسيو أبيرهيدت[١٨٩]، قنصل روسيا. إنه في ديوانه مع أحد الأطباء ومع القائم بالشؤون المحلية. ينصحنا أن نحترس في المراحل الأولى لدى مغادرتنا بغداد، فإن قبائل شمّر والحمويين المتجوّلين بإستمرار، يهاجمون القوافل. لذا ينبغي إتخاذ أشدّ الإحتياطات لدى السفر في البلاد. وإن رؤساء العصابات يسكنون في المدن الحدودية: خانقين، قصر شيرين، وهم مستعدون للعبور من فارس الى تركيا لدى أول تحذير. إن أخ القائم بالأعمال المحلية، بعد أن تجوّل في البلاد التي تكثر فيها هذه القبائل: كرمنشاه، والسليمانية، وكركوك، تعرف على أحد رؤسائها، ورغم ذلك لم تخفّ الأخطار التي كان مقبلاً عليها، فأعطاه هذا الزعيم غلاماً إبن أربعة عشر عاماً، حمّله كلمة سرّ. لم يكن الغلام يسير في الطريق، إنما كان يتسلّق الأطراف العليا، فلم تحصل أية مشكلة للقافلة. وينصحنا هؤلاء السادة في حالة الهجوم أن نطلق العيارات، فتنجو العصابة بنفسها، إلا إذا كان أفرادها كثيرين.

إذ نودع مسيو أبيرهيدت، يسألنا في أية ساعة يسعده أن يلقانا في القنصلية، ويعجب كثيراً إذ يعلم بإننا نسكن في فندق أوروبا، لا في القنصلية، إذ لا شيء أشدّ إزعاجاً لأهالي البلد من أن يكون هناك دعم من قبل ممثل الحكومة، لأنهم سينساقون وراء الظنون، وسيشكّون في نزاهتنا.

مساء، لا شيء نقوم به في بغداد، لذا فإننا نتجاذب أطراف الحديث، وندخّن.

٢٨ تشرين الأول (أكتوبر)

أستيقظنا هذه الليلة بفزع بسبب ضوضاء مروّعة. أحد الجرذان التي تكثر في

(١٨٩) Eberhadt.

الفندق، كما في سائر بيوت بغداد، أمسكته مصيدة موضوعة فوق إناء، فأسقط الحيوان الإناء وهو في غمرة العذاب، فكانت الجلبة الثانية أشدّ من الأولى. ندخّن قليلاً ونحن في حالة إضطراب.

نقضي الصباح مع عامل يصنع لنا صناديق لتغليف أغراض مجاميع تمكّنا من الحصول عليها أثناء الطريق. أمضي فأسأل السيد أصفر، الذي يقوم غالباً بتدبير أمر هذه الطرود بالنسبة للمكوس، ثم إرسالها، لأن هذه الطرود تضمّ أغراض مجاميع مهّمة، وسوف أنزعج جداً إذا لم أرها تصل الى فرنسا. عليه تكليف أحد عملائه لكي يقدّم لنا جميع آنية الخمر الضرورية. ويقوم السيد أصفر بهذه الخدمة، إنما بشكل غير محمود. فرغم كونه مسيحياً، يظل تركياً لايريد خدمة أي أوروبي[١٩٠]. نبعث بالصناديق إليه[١٩١].

أما الصناديق التي كانت تحتوي على الجماجم المأخوذة من وادي الزاب الكبير، وعلى كتابات النمرود، فإليكم ما حصل لها:

منذ غداة وصولي الى بغداد، مضيت الى المكوس (الكمارك) والصناديق معي. فأكدّ لي الموظف الأول، بفضل إكرامية، إنها ستمرّ دون أن يطّلع عليها أحد. غير أن رئيسه، وقد علم بسخائي، أوقف الصناديق، وحاول أن يحصل على فائدة ما. تجاوباً مع وعده الرسمي بأن الصناديق ستكون غداً على ظهر القوارب، نفحته هدية. لكن الموظف جاءني في الغد، ودون أن يمكنني من فكّ كلماته الغامضة، قائلاً: إن الحكومة قد صادرت الصناديق، وطالبت بفتحها. وكانت أقواله المشحونة بالتراجع تفيد إنه بوسعي رؤيتها، بفضل إكرامية أخرى. فوعدته بمكافأة إن أنا وجدتها، ولكني لن أعطيها إياه إلا بعد أن تكون الصناديق على ظهر القارب.

في الغداة، كما في الأيام التي تليها، أضيع ساعات في الگمرك، وجهلي للغة يسبّب لي حرجاً كبيراً.

(١٩٠) تعبير آخر يوحي بالتعصب والتعالي اللذين كان عليهما بنديه.

(١٩١) لقد وصلت هذه الصناديق الى فرنسا بعد ستة أشهر، منهوبة ومسلوبة بشكل مخجل، فقد أنتزعت منها أغراض ذات قيمة، وأقمشة موشاة، وزمرد، ومجوهرات، وقطع من العنبر (الرحالة).

يوم سفري، جاءني موظف الگمرك الذي كنت قد وعدته بمكافأة جيدة حين تصبح صناديقي في النهر، مبشراً إياي بأن الصناديق هي على الرصيف، جاهزة للتحميل. فذهبت للتأكد من الأمر. إنها صناديقي حقاً. وكنت على إستعداد لكي أمنح المكافأة، حين راودتني فكرة الأمر بفتحها. وقد رأيت ساعتها أن الرجل يحاول الإفلات، إلا أني أمسكته من كتفه، فإرتجف كورقة، وشاهدت بأن جماجمي وحجارتي وكل القضايا الأخرى المثيرة قد أستبدلت بقطع جبسية. لولا أن هاملن أسرع فأمسكني، لكنت قتلت السارق.

ولم يكن في اليد من حيلة، فإن أية مطالبة بوسعها أن تجلب لي مشاكل جديدة ومفاجآت جديدة، دون أي أمل في النجاح. وقد سبق القنصل وقال لنا أن لانعتمد عليه، فكان من الأولى الإستسلام: «لقد أراد الله ذلك –قال هاملن– فلا نحاول أن نتعارك!».

بينما يعني نانو بإعداد قافلتنا، نستقبل نحن قنصل روسيا وترجمانه. لقد كان الأخير مندوباً في خدمة شاه فارس إبّان إقامته في بغداد، مكلّفاً خاصة ببريده التلغرافي. وحين همّ بمغادرة بغداد، قدّم له قائمة حساب البريد، فرفض الشاه دفعها. وبعد إلحاحات مكررة، علّق بأن الصناديق التي كانت قد سارت قبله، يجب أن ترافق حتى الحدود، وهناك يدفع الحساب. فوضع المندوب منعاً على الأمتعة، بينما كان الشاه يلحّ على الدفع داخل أراضيه. «إنه لمن المستحيل، يا صاحب الجلالة، النزول عند رغبتكم. فأنتم إن رفضتم الدفع إلاّ في الجهة الثانية من الحدود، لن يكون لي أية وسيلة لإرغامكم على ذلك». فأجاب الشاه: «هوذا شيك على حساب طهران». أجاب المندوب: «لا أتمكن من قبوله»، أخيراً، رضي الشاه أن يعطيه شيكاً على حساب بغداد. وحين قدّم الشيك للبائع الفارسي الذي كان معنوناً بإسمه، لم يشأ أن يدفع، قائلاً: «لقد قدمت الكثير من المال للشاه حتى الآن، وقد أتعبني أمر الدفع بإستمرار، وأنا غير مطلوب له بشيء».

وشكا الترجمان البائع لدى الوالي، فأمر بجلب البائع الذي كان يرفض دفع المبلغ. وهذا بعد تأمل طويل، جاء في الغداة حاملاً الثلاثمائة ليرة تركية، مفضّلاً خسارة هذا المبلغ عن الإصابة بنقمة، فإن للملك، كما يبدو، عادة إستغلال العناصر الغنيّة

خيم أعراب قرب بغداد

التي في الخارج، فإنهم إن لم يقوموا بالخدمة المطلوبة، لن يتجاسروا فيما بعد على العودة (الى البلاد) خشية الإغتيال، وهو شرف أن يستقبلهم الشاه حين يقصدون البلد، ولايسمح بزيارته إلا للذين يقدّمون له كيساً جيداً من الفضة.

٢٩ تشرين الأول (أكتوبر)

كنا نؤمل أن نسافر اليوم. غير أن صاحب البغال الذي كان يبدو بأنه متفق وإياهم على كل شيء، أخذوا في اللحظات الأخيرة يثيرون صعوبات فوق صعوبات. فهم يحتاجون قبل كل شيء الى حصان آخر، على نفقتنا، لحمل رحال من سوف يحملون سرجنا، وهم لايستطيعون أن يحملوا شيئاً لدى عودتهم، فأسامحهم في هذا الأمر. ويسألون ليرة أكثر من المتفقّ عليه، تدفع مسبقاً، ثم يطالبون بليرتين، فأقبل بذلك أيضاً. ولكنهم يطالبون أخيراً بزيادة سعر كل حصان. لقد كان المتفق عليه ثلاثين قران، فطالبوا بثلاثين بيشليك[١٩٢]، وهو فرق يساوي زيادة ثلاثة وثلاثين بالمائة. لذا فإني أبتر المساومة هذه المرة، وآخذ المال المدفوع مسبقاً، وأرسل نانو بغاية السرعة الى السوق في محاولة لإيجاد أصحاب بغال آخرين، قبل أن يكون هؤلاء قد أوصلوا الخبر الى رفاقهم بإستياء.

(١٩٢) القران عملة فارسية، كان يساوي أيام بنديه (٠,٨٠) من الفرنك الفرنسي، أما (البيشليك) فعملة تركية أكبر قيمة من القران. أنظر ذيل الكتاب.

نتغدّى أثناء ذلك، حتى يأتينا نانو بجواب حسن. فأرسله لدى الوالي طالباً شرطة يرافقوننا حتى الحدود. لايعود إلا بعد ساعتين. والوالي يرفض إعطاءنا الجنود بقوله:

«الطريق خطرة، لأنها مشحونة بالعصابات. والحمويون في إنتفاضة. ومرافقة هؤلاء السادة ستجعلني أنا المسؤول عن أمنهم، فليسلكوا طريقاً أخرى». أي طريق؟

ليس بوسعنا أن نمرّ عبر البصرة، وبوشهر وشيراز، لأنها خارج مسار رحلتنا بكثير. لذا نقرر أن نعمل برأينا. بما أن الوالي لايريد أن يعطينا جنوداً، سنسافر وحدنا، وفي طريق التي قد عزمنا على أن نسلكها. ومن الممكن أن ما يقوله الوالي كذب، إذ لعلّه يريد مضاددتنا وتعويق مشاريعنا. ولايلزمنا سوى أيام ثلاثة للوصول الى الحدود الفارسية، ثم نكون في مأمن، إذ نكون قد تركنا تركيا أخيراً، فهي ألف مرة أكثر تعاسة، وأخطاء، وفساداً من فارس(١٩٣).

نمضي لرؤية السيد خوري، ترجمان القنصلية، ونحكي له همومنا ونعلمه بقرارنا. يوافقنا مبدئياً بأن علينا أن لانتأثر بكل ما يقال لنا. خلال الزيارة، يرينا مجموعة بديعة من الرماح، والأتراس، والأسلحة المختلفة المصنوعة في زنزيبار، ويأسف لمكانه السابق. إذ نعود الى الفندق، يبدو كل شيء معداً للسفر. نصفّي حسابنا مع صاحب الفندق ديمتري فيروز(١٩٤).

وخلاصة الأمر، بيته غير محترم وغير مريح، لكنه رجل طيبّ، إستقبلنا بشكل جيد.

يأتي السيد خوري، من باب الصداقة، لزيارتنا، بعد العشاء. الأمتعة كلها مهيأة. نرقد منتظرين ساعة الرحيل.

(١٩٣) مبالغة أخرى من مبالغات بنديه.

(١٩٤) Dimitri Firos صاحب فندق أوروبا Hôtel d`Europe أنظر الهامش (١٧٥*).

من بغداد الى كرمنشاه*

من ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) الى ٥تشرين الثاني (نوڤمبر)

الرحيل عن بغداد. الصحراء. السراب. خان بني سعد. ديالى. بعقوبة. المقاهي والخانات. السفر من بعقوبة. شيراباد. نانو يعود الى بغداد. عائلة فارسية في سفر. السفر في الساعة الواحدة ليلاً. السير ليلا. قزلربات. أحاديث تركية. القائمقام. فزع خاطيء. خانقين. ضفاف النهر. الدكتور سآب. الحدود الفارسية. قوافل الموتى. قصر شيرين. أسطورة شيرين وفرهاد. شيرينبول. أكراد. قوافل كبيرة. أبواب زاگروس. كيرند. هارون آباد. مسيرة تشاد زيفار. ماهيدشت.

كنت قد رجوت (نانو) أن يكون موجوداً في الفندق نحو الساعة الثالثة صباحاً، إذ علينا أن نسافر في نفس الوقت صحبة قافلة أخرى. الساعة الخامسة والنصف، وهو لم يصل بعد. وأصحاب البغال جاهزون منذ وقت طويل. لذا أضطررت أن أبعث في طلبه. هوذا شخص آخر يحبّ الراحة، على ما يبدو، ويريد أن يسافر إنما بدون عجلة. ألم يكن قد شحن رأسه هذه الأيام لإقناعنا بالإستغناء عن يوفان الأمين، بحجّة إنه لن يتمكن من قطع الطريق؟ أظن بأن السبب الحقيقي رؤيته إياه شريفاً جداً، فكانت هذه النزاهة تزعجه.

نبدأ في الساعة السادسة فقط بتحميل الجياد، وهو أمر غير هيّن نسبة الى هذه الطريق الصعبة. نانو قد أثقل نفسه بالأمتعة بشكل غبي، يلزمه بغل حمولة له وحده، دون إحتساب لما يحمله بغله الخاص. لم يقبل بالركب الأوروپي الذي لنا، بل صنع له محملاً من فرش وركب فوقه. إني أتساءل كيف بوسعه أن يحافظ على هذا الحمل الضخم؟

تتحرك القافلة أخيراً، في الساعة السابعة. لقد كان من طيبة السيد خوري بأن يبعث إلينا قواصين من القنصلية لمرافقتنا وتسهيل حركتنا في الأسواق. نتبع طريق الأسواق العريض الذي كنا قد سلكناه لدى وصولنا. نمرّ أمام معسكر المشاة، ثم فناء ثكنة المدفعية، وبدلاً من أن نميل الى اليسار، بإتجاه النهر، نتخّذ طريقنا الى اليمين،

* الفصل الحادي عشر من الرحلة.

فالدرب أكثر عرضاً، ومحفوف بدكاكين الباعة، حتى نبلغ باب المدينة، يحرسه بضعة جنود. يتركنا القواصان، فندخل في الصحراء، ويمتدّ السهل الفسيح بما لايسع النظر أن يحدّه. ليس علينا سوى أن نتجّه بإستقامة، مقتفين أعمدة التلغراف التي تضيع صفوفها الجامدة في الأفق. بعد نحو ساعة، نلاحظ شرطياً يتبعنا. لاشك إنه مبعوث لكي يتجسس علينا، إذ يجب أن يكون الوالي مستاء جداً، لأننا لم نعر إهتماماً لنصائحه. لقد تجاوزناه ونحن نسافر في ولايته.

بعد ثلاث ساعات من المسير، وعلى بعد خمسة عشر أو ستة عشر كيلومتراً من بغداد، نصادف خاناً قديماً متهدّماً، يخيم فيه الرعاة، وغير بعيدة عنه قناة سقي يعمل فيها بعض الأعراب، عرضها متران، وعمقها نحو عشرين سنتمتراً، ويبدو إنها تتيه في الرمال يميناً وشمالاً. إنها الصحراء بكل جفافها. ونشاهد آثار السراب بنوع غريب جداً. فعلى بعد مائتي متر الى الأمام، تظن بأنك تشاهد بحيرة، بحراً وجزراً، وخلفنا، تبدو بغداد وكأنها وسط بحيرة. وتعطي المياه صورة معكوسة. بينما تستمر الطريق رملية، رتيبة. ومن حين لآخر سرب غربان تتشاجر وتتعارك حول الجيف وعظام الحيوانات الميتة في الطريق. نصل الساعة الواحدة بعد الظهر الى خان بني سعد[١٩٥]. إنه خان كبير، كثيراً ما تقضي القوافل الليل فيه، فهو بمثابة طريق وسط بين بغداد وبعقوبة. بعض باعة الرقي، والشاي، والقهوة قد إستقرّوا حوله. وبما إننا شئنا الوصول الى بعقوبة في هذا المساء، لم نسترح سوى نصف ساعة فقط.

القافلة التي كنا نريد اللحاق بها هذا الصباح قد توقّفت هناك، وإتخذت إستعداداتها لقضاء الليل. إنها غفيرة العدد، إذ أنها مكوّنة من أكثر من مائة حصان (بغل). الأمتعة مجمعة في الوسط، والجياد مرتبّة حولها بشكل مربع، وجوهها الى الخارج، وأمامها كوم العلف وأكياس الشعير.

لعلّ أحدنا يتشكّى من بطء سرعة القوافل الكبيرة كواسطة للنقل. إن أصحاب القوافل بطيئون، غير متعجّلين، إلا أن مهمتهم قاسية ومضنية، إذ على رجل واحد أن يسهر على عشرة أو إثني عشر حصاناً، وأن يقودها. لقد شاهدت قوافل مكوّنة من أربعين جملاً يقودها ثلاثة رجال. وعلى هؤلاء الأفراد أن ينزلوا حمول جميع

(١٩٥) Khan Beni - Saad.

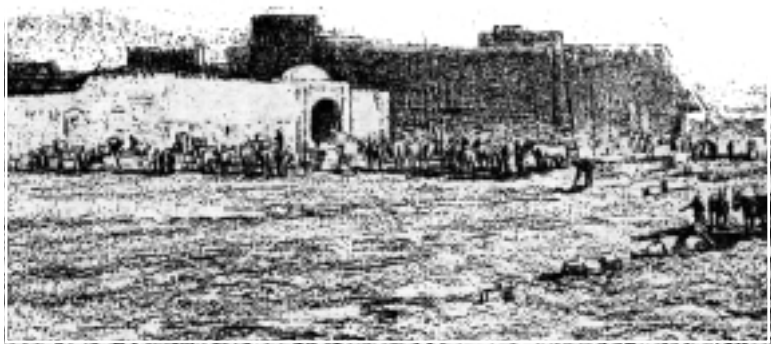

خان بني سعد

الحيوانات لدى وصولهم أول مرحلة، وأن يطعموها، ولايفكّروا بأنفسهم إلا آخر الكل. وطيلة النهار، تحت شمس محرقة تفوق درجة الخمسين، وسواء أمطرت الدنيا، أو أثلجت، أو إنجمدت، يسير هؤلاء المساكين بثيابهم عينها، ولا غذاء لهم سوى الرقّي والشاي. الطقس من أطيب ما يكون، رغم حرارته. نسير بإتجاه الشمال الشرقي، ونصادف ريح الشمال ترطّبنا وتطرد الغبار من جهة واحدة دون أن تزعج مؤخرة القافلة.

لا يسع المرء أن يتصّور كم بوسعه أن يخطأ في تقدير المسافات. فنحن منذ ساعة، أي منذ لحظة تركنا خان بني سعد، قد لاحظنا بعقوبة في البعيد، فتصورنا إنها على بعد ثلاث ساعات من المسير لا أكثر، غير إننا لم نصل مدخل القرية إلاّ في الساعة السابعة.

فالمسافة بين بغداد وبعقوبة يجب أن تكون من ستين الى خمسة وستين كيلومتراً على الأقل[١٩٦].

(١٩٦) Bakoubah مركز محافظة ديالى.

ويكتب الرحالة: «يقال إنها ثمانية فراسخ، إنما إن قدّر الفرسخ بأقل من ثمانية كيلومترات فالتقدير خاطيء، لأننا قد سرنا إحدى عشرة ساعة بخطوات ثابتة، وبجياد غير متعبة، وكان الطريق ممتازاً، مستقيماً، دونما صعود أو هبوط، ولم تكن درجة الحرارة مرتفعة بشكل مفرط، لذا فإن أقل معدل لسيرنا لم يكن بأقل من ستة كيلومترات في الساعة الواحدة»

خان من الخارج

قبل الوصول الى بعقوبة، حاذينا فترة من الزمن (نهر) ديالى[١٩٧]، أحد روافد دجلة الذي يسقي واحة نخيل ورمان لها شهرة كبيرة. تمتدّ البساتين على الساحل المعاكس للضفة التي نسير عليها. وقد صادفنا أثناء النهار قوافل كبيرة مكوّنة من الحمير المحملة بثمار الواحة، تنقل الى بغداد.

بعد هذه المسيرة الطويلة في الرمال، يشعر المرء بالسعادة لدى رؤيته هذه المروج الخضراء. لايحتوي النهر في هذه الفترة من السنة على الكثير من الماء. والضفاف المرتفعة عمودياً، تحمل آثار إنهيارات، وهي مشقوقة بتصدّعات عميقة قد حفرتها في الأرض السيول الجارفة وذوبان الثلوج في الربيع. كاد الليل أن يسقط لدى وصولنا جسر قوارب ينبغي إستخدامه لعبور النهر. في الطرف الثاني، بيت صغير من الحجارة يجب أن نعبر أمامه لكي نستكمل الطريق. إنه بيت المكوس (الكمارك). الشخص الموظف الذي فيه يرفض ثلاث دفعات عملة نقود صالحة، ويحاول بدلاً من ذلك أن يردّ لنا قطعاً غير صالحة.

نتبع طريقاً محصوراً ضمن حيطان طين تحيط بالبساتين. القمر الذي يشعّ من خلال النخيل يعطي مسحة خاصة للمشهد. ونبلغ المدينة أخيراً، وندخل الأسواق على وقع

(١٩٧) Diyala.

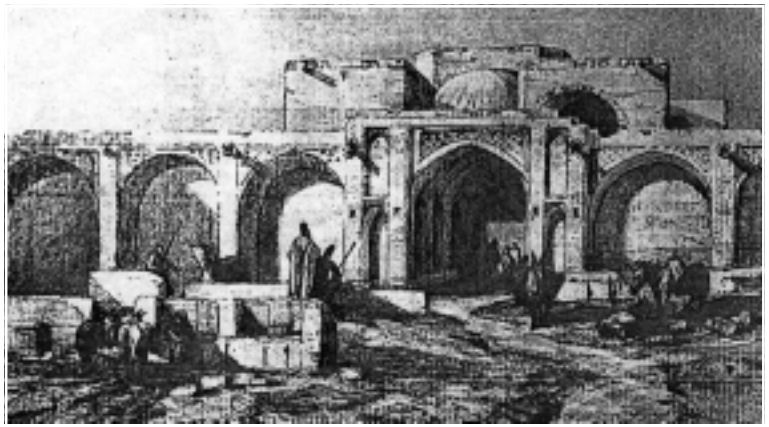

خان من الداخل

الأجراس المتدلاة من الإثنين والثلاثين جواداً وبغلا. الأدلاء يتوزعون على سائر أطراف القافلة. تحدث ضوضاء لاتطاق، لكنهم يحبّون ذلك، بل يحسون بالنشوة وسط هذه الهمهمة الرتيبة.

الأسواق أضخم مما كنت أتصوّر، فلبعقوبة شأن لا بأس به. إنها مدينة أربعة أو خمسة آلاف من السكان. معظم الدكاكين مقفلة، غير أن ثمّة باعة الحبوب (الجرزات) والفواكه، تنيرهم شموع معروفة موضوعة في زجاج ملوّن أو مصابيح بدائية، يعرضون سلعهم على السابلة المتأخرين. نرى كذلك مقاهي واسعة مملوءة برواد يتمتعون بالأنس (الكيف) بكل هدوء، مدّخنين النرجيلة. إنهم مرتخون على دواوين حصران، متقاربون الى بعضهم بحيث يصعب المرور فيما بينهم، وثمّة مصابيح قليلة تضيء لهم. هذه الحشود البيضاء غير المتحركة، كاللعب، هي صامتة، أو تتحدث بصوت خافت وسط سحب الدخان. إنها صورة حقة للحياة الشرقية. كلهم ينظرون إلينا، إنما دون إزعاج، كالثيران في الريف تقف جامدة لتتطلع الى المارة النادرين[١٩٨]. بعض الأولاد يتبعوننا.

نتجوّل بعض الوقت في هذا الوسط الغريب، وندّق أبواب العديد من الخانات قبل

(١٩٨) راجع الهامش ٧٠

العشور على خان يمكنه أن يستقبلنا، فالأول ليس له مكان، والثاني لايضيّف مسيحيين[١٩٩].

أخيراً نكتشف خاناً نتمكّن من إستئجار مكان رحب ومريح في الطابق الأول (الأعلى) منه. إنها فسحة كبيرة مسيجة بسياج خشب، مشرفة على الطريق، ويمكن غلق الباب نوعاً ما، وفي أرضه بساط مقبول. الحارس طيّب، يساعدنا على إنزال حمول جيادنا وإيصال كل الأمتعة الى الأعلى، فثمّة خطورة عليها في الأسفل. ويمضي ليوقظ بائع قهوة (قهوجي) قريب، يأتينا حاملاً السماور[٢٠٠]، فيعد لنا الشاي، بينما يطهو يوفان دجاجة مع البطاطس للعشاء. لقد إستطاع أن يحصل عليها لقاء بضع رمانات. ويأتينا أحدهم، مرتدياً ملاءة ذات أزرار مذهبّة، فيطلب معلومات من قبل القائمقام، وذلك فيما يخص المسافرين الأوروبيين الذين رأوهما يمران في السوق. بعد إستلامه المعلومات، يحاول التدخّل في شؤوننا، لكني أبعده الى الباب، وأعني بتضميد هاملن الذي يتألم من رجله كثيراً، فالعقب منتفخ جداً، وبالكاد يتمكّن من السير. هل هي لدغة؟ أم هو جهد زائد؟ لقد جربّنا البارحة الدلك دون فائدة، لذا سنجرّب اللزقة.

يعود الشخص ذو الأزرار الذهبية قائلاً بأن القائمقام يريد رؤيتنا، نحن وجوازاتنا. أبعث إليه نانو، مخوّلاً إياه أن يقول له بأني لن أكلّف نفسي، لكنه يستطيع أن يأتي إن شاء أن يتحدّث إلينا.

نرقد بعد العشاء وسط الضوضاء الشديدة لآلاف الأجراس المعلّقة في أعناق الحيوانات المربوطة في الفناء.

٣١ تشرين الأول (أكتوبر)

علينا أن نقطع اليوم وغداً المرحلتين الأشدّ خطورة في طريق بغداد-كرمنشاه. إذ غالباً ما يمارس شمّر والحمويون القرصنة، بين بعقوبة والحدود التركية، ويسلبون المتأخرين عن القوافل. لقد أوصيت نانو جيداً، الذي كان ينام في إحدى غرف الطابق

(١٩٩) المقصود بذلك الأجانب، لا النصارى من أهالي البلاد.

(٢٠٠) Samovar

الأرضي مع يوفان، أن يوقظنا لكي نتمكّن من السفر في الوقت عينه مع التجار الفرس الذين كانوا يقضون ليلتهم في الطابق السفلي. ملفوفاً بالأغطية والملاءات والمخدات التي حملها لن يستيقظ أبداً.

ولا يوقظني أنا نفسي سوى الجلبة التي سببها التجار وهم يغادرون، فأنهض وأنزل مسرعاً، لكننا نحتاج الى أكثر من ساعة لكي نجهز القافلة. مايزال الظلام مخيماً، ولايكفينا القمر والنجوم رغم ما ترسل من أشعة لكي تنير لنا، لذا علينا أن نقوم بكل شيء ونحن نتلمس. وهاملن متألّم كثيراً بسبب رجله، بصعوبة يقدر أن يعني بنفسه وحدها. نترك الخان في الساعة الرابعة. نسافر وحدنا.

الليل رائع. كالأمس، نتبع حيطان الطين التي تحيط ببساتين بعقوبة، وذلك خلال ربع ساعة، إنما في الطرف الآخر من المدينة. ثم نلقانا في الصحراء. نقتفي خطوات القوافل السابقة. الصباح بارد. خلال بعض الوقت نسير ماسكين الأعنّة. ونحو الساعة العاشرة، بعد إجتياز أطلال كاراستيل[٢٠١]، نصادف القوافل الكبيرة محملّة بالطنافس وأكياس القطن وغيرها. ونشاهد في البعيد بعض الواحات، وتبدو الأرض مزروعة، ثمّة أشخاص يشتغلون في الحقول بالمحراث الخشن المتكوّن من كلاّب خشبي واحد.

نتبع قناة ذات أطراف مرتفعة الإنحدار، مغطّاة بالأعشاب والعوسج. السواقي عميقة يصل الماء بواسطتها الى الحقول، وهي تقطع الطريق بإستمرار مكوّنة مستنقعات وحلية. إن عبورها مغامرة حقة، وذلك بسبب خطر السقوط في الحفر، وهذا ما حصل فعلاً لواحد من جياد الأحمال.

نلمح شيراباد حيث سنتوقف هذا المساء[٢٠٢]. تسير الطريق بإنعطاف كبير، وتشكّل الأرض وديااناً طويلة غير بادية للعيان إلا قليلاً. الأعمدة التلغرافية لاتتبع الخط المستقيم، وبوسعي أن أعلل الأمر بسبب طبيعة الأرض، فإن مظهرها المائل الى السواد يحملني على الإفتراض بأنها تتحول في الربيع، بعد موسم الأمطار، الى أهوار خطرة. وفي البعيد سلسلة جبال حمرين التي تقطع دجلة قرب قلعة

(٢٠١) Karastel

(٢٠٢) Scherabad

شرقاط[٢٠٣]. هذا ما كان متوقعاً! نانو يسقط من فوق بغلته! فهو مستلق فوق أحد مطارحه، وفوق أكياس وأغطية بحيث لم يكن بوسعه المحافظة على توازنه إلا بجعل دابّته تزحف بدلاً من أن تسير. غير أن حيّة كبيرة خرجت فجأة من حزمة عوسج، أمام قدمي بغلته تقريباً، أرعبت الحيوان، فهرول مسرعاً، ونانو بأكياسه ورحاله ومطارحه تدحرج على الأرض، بينما كان أصحاب البغال يسرعون الى الحيوان الهائج، وأمضي أنا لمساعدة المسكين. لقد سقط سقطة مؤذية، وأصابته قبضة المسدس في جنبه، فقال إنه متألم جداً. لحقته بعض خدوش في الرأس، أمتطى دابّته ثانية، فواصلنا طريقنا. بعد أكثر من ساعة، تغدو الدنيا حارة جداً، ونودّ لو نصل.

نبلغ أخيراً شيراباد التي كانت في السابق محاطة ببساتين ساحرة قضت عليها موجات الجراد. الخانات مزدحمة، لأن جميع التجار الذين رحلوا قبلنا، حطّوا فيها، فلا نلقى مكاناً إلاّ في خان متوسط الحال حيث نحطّ الرحال. هاملن يتمدد منذ ساعة وصولنا. ونانو يبكي مثل طفل، إذ ليست له أية قابلية على المقاومة.

حولنا تجار يهود وعرب وأتراك وفرس. يبدو العديد منهم بحال موسرة. فهم يجلسون على طنافس جميلة، يدّخنون بالقلايين النفيسة، ويقضون الأنس (الكيف)، متطلعين إلينا بعين الرضى والرخاء. يتزين بعضهم بالخواتم الثمينة، لكنهم ليسوا متكبرين ولا مترفعين تجاه مرؤوسيهم والمساكين، بل يعاملون أناس الأسمال البالية والثروات بعين الإحترام الظاهري.

بجوارنا يهودي، قد صبغ لحيته وشعره وأجفانه بالحنّاء، بلون أحمر جميل، غير إن بعض الشعيرات الغبراء تبان في لحيته. إنه يسافر مع خادمه وإمرأته التي تمكّنت أخيراً من رؤيتها مع إنها إهتمت كثيراً في إخفاء نفسها. إنها شابة ووسيمة جداً، إذ أن سحنتها برونزية جميلة، وعينيها سوداوان مشعّتان، وأسنانها جميلة ومرصوفة جيداً، وهي ذات إبتسامة وإشراقة في الحركات، تقضي يومها ووجهها بإتجاه الحائط، تدخن النرجيلة، وتقوم بإعداد الطعام لصاحبها وسيدها.

نانو[٢٠٤] مايزال متألماً. الزمام لايناسبه. يتقلّب فوق سريره وهو يئنّ. في الساعة

(٢٠٣) جبال حمرين Djebel - Hamrin

(٢٠٤) أخطأ الرحالة فكتب (هاملن) وهو يريد (نانو). سياق الحديث سيؤكد بأن المقصود هو نانو، فقد عاد فعلاً الى بغداد.

الخامسة يقول لي إنه يفضل العودة الى بغداد من إستكمال السفر. وهذا ما يضايقني قليلاً، لكنه غير مزعج لي أن أجرّب المغامرة، وأحاول القيام بالمهمة وحدي، دون الإستعانة بمترجم. أصفيّ حساب نانو الذي قام بعمل جيّد فيما يخصّ بيع بقايا الكلك، لكنه لم يقدّم لنا خدمة أخرى مهّمة عدا ذلك.

إن حدوث مشهد من نوع آخر يجعلنا نغيّر فكرنا. كان يوفان قد أشترى دجاجتين بأربعة قروش (١٥, ٠ من الفرنك) من صبّي. ولمّا علم هذا الصغيران الدجاجتين هما لأوروبيين، أراد أن ينتفع وأن يبيعنا إياهما بستة قروش.

١ تشرين الثاني (نوڤمبر)

إنه يوم عيد جميع القديسين في الغرب[٢٠٥]. أي نهار قاس وشاق. نانو قد رجل بالأمس. ولم نتمكّن من النوم منذ الساعة التاسعة والنصف مساء، إذ هاجمتنا عصابة قطط جاءت تحاول النيل من مؤننا باحثة عما يؤكل حتى تحت أسرّتنا والخيم، فأشاعت الفوضى في أمتعتنا.

كنا قد إتفقنا على البدء بتقديم الشعير للجياد في منتصف الليل، وعلى أن نغادر في الساعة الواحدة. لكن الأدلاء كانوا مايزالون يغطّون في نوم عميق. حاولت أن أوقظهم، غير إنهم لم يفهموا أو كانوا يتجاهلون إيماءاتي. ويوفان يحاول أن يكون صاحب إرادة، إلا إنه لايفهم هو الآخر. ثلاثة أرباع الساعة وأنا بفانوس صغير أقلّب القاموس الفرنسي التركي محاولاً تركيب بعض الجمل التي قد أحتاجها. أن يقوم المرء بتمارين تركية في مثل تلك الساعة، وبعد يومين من السفر على ظهور الجياد، لأمرٌ غير هيّن!

يوفان يفهمني بنوع أفضل. وأتمكّن أخيراً، في الساعة الواحدة، من أن يسمعني أدلاء القافلة، فيستيقظون ويقدّمون الشعير للحيوانات. لم يعد صوت الإجترار مسموعاً في الخان في الثانية، فقد كنّا على أهبة الإستعداد. وفجأة، وكأنّه على صوت الإيقاع، ينهض الجميع كل من غرفته، ويبدأون بإعداد الحيوانات، فيتغير المشهد تماماً. الكل جاهزون خلال عشر دقائق. هذا الفناء الهاديء حيث لم يكن

(٢٠٥) يقصد بذلك إنه يوم عطلة عندهم.

يسمع سوى إجترار الحيوانات، هو الآن منتعش حيوية بفضل ضوضاء السفر.

الليلة أقل نصوعاً من سابقتها، حتى إنه علينا أن نربط الجياد ونحملها على ضوء المصابيح. ورغم إننا بدأنا قبل الآخرين، فإننا لم نكن أول الجاهزين للسفر، ومع ذلك ترأسنا القوافل لتجنّب غبار الآخرين.

نحن في صحراء تامة. والحديث قليل عندما تكون الدنيا مظلمة، ولايسمع سوى وقع أقدام الحيوانات وبعض الهمهمات، بصوت خافت.

الدنيا باردة، أسير مشياً على الأقدام قليلاً لكي أدفيء نفسي. لكنني أنام بينما أنا أسير، لذا أمتطي الحصان. بعد ليلة كهذه وأنا بدون نوم، سوف أرتمي منهوكاً، وحالتي هذه تستمرّ ثلاث ساعات، حتى أخذت السماء تتلوّن جهة المشرق، فتبدد الخمول، ونبهني الضياء، فولّى التعب.

نجتاز جبل حمرين في الساعة السابعة. إنها هضاب قليلة الأهمية، ذات جفاف وعزلة خاصّين. ثم ينفسح سهل صخري طويل، تليه حقول قليلة الزرع، حتى نصل قرية قزلربات[٢٠٦]. يقطع القرية جدول يمضي فيتيه في الصحراء، نحاذيه، ثم ندخل من باب حجري منصوب وسط سوق طولها مائة متر على شكل نصف دائرة، وخلال خمس دقائق نبلغ الخان الذي في الطرف الثاني من القرية.

إنها الساعة التاسعة والنصف. نفضلّ المضي أبعد، من قضاء نهارنا متسكّعين في هذه الأكواخ الكبيرة، إلا أن أدلاء القافلة لايعزمون على السفر، ويقولون: الطريق رديئة وخطرة. فأسأل عما إذا كان في القرية أحد يتكلم لغة أوروبية، فيقودونني الى مكتب التلغراف بينما يظلّ هاملن أثناء ذلك في حراسة بقية القافلة[٢٠٧].

التلغرافي لايعرف من لغتنا سوى أحرف الألفباء، لذا أوجّه إليه الأسئلة بمساعدة القاموس، فيجيبني بنعم أو لا، ونتيجة أجوبته: إن الطريق ليست آمنة كثيراً، لكنه سيقودني لدى القائمقام لكي يعطيني جنوداً. أمضي سيراً على الأقدام مع تلميذ

(٢٠٦) Kizil - Rabat

(٢٠٧) يستعمل بنديه هنا لفظة فرنسية بمعنى (القطيع) بدلاً من القافلة (الكروان).

فولتا[٢٠٨] حتى البيت الطيني للقائمقام. إنه أمام قنطرة باب منزله، وقد جعل منها ديوانه، وكل الوجهاء محيطون به، عددهم نحو خمسة عشر.

إن فرينيه لم تثرها الدهشة وهي أمام المحفل (في أثينا)[٢٠٩]، كما إعتراني من الذهول والحياء، فهم يتحسسونني، يلمسونني، وواحد يتطلّع الى قبعتي، وآخر الى جزمتي (البوت)، والثالث الى بندقيتي ويرجوني القائمقام أن أجلس، ويطلب تقديم القهوة، بحيث يغدو المشهد هزلياً، إنما طويلاً. وأنا أشرح بقاموسي وبحركات شديدة بأن ترجماني قد بقي في الطريق وبأني أمضي الى فارس وأريد جنوداً يرافقونني لأن الطريق خطرة. يبحث التلغرافي في القاموس عن الكلمة التركية التي بوسعها أن تفي بالجواب، فيؤشرها بأصبعه، فأرى بإنه لن يكون لي جندرمة وحسب، إنما جنوداً حقيقيين[٢١٠]. إذ أشكر، أسمح لهم أيضاً بالتطلّع إليّ وتحسسي بعض الوقت، وأعرض عليهم سلاحي (وينجستر) الذي يذهل كل الحضور بآليته وإطلاقته، ويصل صاحب القافلة (الكرواني)، خشية أن أشكوه، ووجهه يتبسم، ويقبّل قدمي وركبتي. وإذ يراني القائمقام مستعجلاً، يأتي معي حتى مكتب البريد لكي يعجّل أمر الجنود.

إنها الساعة الحادية عشر إذ نغادر تاركين خلفنا برودة الغدير وظلال النخيل. الشمس محرقة، والأرض ترسل إليك حرارة تلهب الوجه واليدين. والجياد لاتتناول الشعير، ونحن كذلك لم نذق طعاماً منذ الساعة الواحدة صباحاً، سوى فنجان قهوة، أشتري بعض الرقّي للرجال، ونتغدّى على ظهور الجياد؛ ثلاث قطع حلوى من المنّ وكأسي عرق. بعد ساعتين من المسير في رمال السهل، نصل لدى أقدام لوتي

(٢٠٨) ألكسندر فولتا (١٧٤٥-١٨٢٧) فيزيائي إيطالي ومخترع معروف.

(٢٠٩) Phryné حسناء أغريقية من القرن ٤ ق.م، إستخدمها براكسيتيل نموذجاً (موديلاً) لصنع تماثيل أفروديت، ولما أقتيدت أمام محفل الأريوفاغي في أثينا لمحاكمتها بسبب تصرفاتها اللاخلقية، عفى عنها المحكّمون لجمالها.

(٢١٠) إن تشكيلة الجنود هي ذات قيمة أكبر من الجندرمة، فبالإضافة الى كون الجند أشدّ تسلحاً، فبإمكانهم إستخدام بنادقهم لدى أول هجوم، أما الجندرمة فلا يحق لهم إلا المجاوبة بسلاح شبيه بما للمهاجم، سواء كان عصا، أم حجراً، أم سكيناً، ولايحق لهم إستعمال البندقية إلا إذا كان للعدو سلاح ناري (الرحالة). وأنظر الهامش ٦.

باخچه[٢١١]: أرض مستوية واسعة وسطها محفور بواد، مما يدلّ على أن تشققاً قد حصل في الناحية الجنوبية الشرقية بسبب مياه الأمطار التي تمضي لكي تصبّ في كاني كند[٢١٢].

إذ نبلغ أعالي أولى الذرى، نشاهد بكل إندهاش إمتداد هذا السهل المتأجج. ونلتقي بفارسيَيْن في منتصف الطريق، جالسين على حافة الطريق يرافقان قافلة حمير. لقد رأيا رجلاً فارساً وخمسة مشاة مسلّحين يطوفون في مدخل المضيق الذي علينا أن نجتازه، وهما ينتظران قافلة لكي لايغامرا وحدهما في ممر صخور وآكام صالحة للكمائن. وإذ أوشكنا على بلوغ حافة التل، رأينا على بعد خمسمائة متر رجلاً فارساً يطوف متنحياً وكأنه يبغي السلب، فيحشو الجند البنادق ويهرعون للحاق به، بينما أستلم أنا قيادة القافلة، لكننا ما نلبث أن نطمئن فإنه شرطي يحرس قافلة وافدة من الجهة المعاكسة، وهو يتقدمها كالطليعة ليكشف عما في الأعالي المحاذية للطريق.

حين نصبح في أعلى التل، ينبسط أمامنا كل وادي ألوند[٢١٣] النابع من ديالى، وتبدو لنا واحة خانقين على ضفاف النهر، إلا إننا بقدر ما ننحدر الى الساحل، تختفي (خانقين)[٢١٤] خلف تلّ ضغير محاذ للنهر، نستغرق ساعتين ونصف للوصول الى الأسفل.

نلاحظ القرية من جميع أطراف النهر الذي تنيره آخر أشعّة الشمس. الى يميننا ألوند، الغدير ذو المياه الغائرة، وعرضه نحو ثلاثين متراً، وهو يخرج من غابة نخيل محصورة ضمن هضبتين ذات إرتفاع عمودي. الأغصان المتقاربة تتشابك وتدنو حتى أعالي المياه بأغصانها البديعة. فتمدّ عناقيد التمور الشبيهة بعناقيد ذهب لا عدّ لها. خرائب جسر صغير أعمدته ساقطة في التيار، تبدو وكأنها تتعارك مع دوار الماء. ويغدو ألوند فجأة عريضاً وهادىء الماء، بينما نشاهد على الضفة عينها إنما

(٢١١) Louti - Baghtché

(٢١٢) Kanikhénd

(٢١٣) Abi - Elwend نهر ينبع من ديالى

(٢١٤) Khanikin قضاء في محافظة ديالى.

على بعد قليل، منظراً ساحراً لساحل النهر: بيوت مرصوفة بإنحناء جميل، وأعمدة تغمرها المياه، وبقايا معبد أو حمّام، وآثار سدّ أو رصيف صغير.

إنه آخر النهار. كلّ منا يقوم بالعمل الأخير. بعض النساء يأتين لإستقاء الماء، وأخريات يغسلن الثياب، بينما يسبح الأطفال قربهنّ. ورجال يقودون الجياد والثيران والحمير والجمال للشرب. الجميع على موعد قرب النهر بعد حرّ النهار.

علينا أن نعبر النهر. القاع عميق جداً، ولانريد أن نعرّض الأمتعة للبلل في لحظات نحن بحاجة الى إستخدامها، لذا نتبع إحدى طرقات القرية، إذ لايسعنا أن نحاذي الهضبة، ثم ننحدر الى مجرى النهر للبحث عن مكان أكثر ملاءمة للسير في الماء. لايبدو أن الناس هنا يحبّون الأوروبيين، فالنساء يشتمننا، وصبية صغار يرموننا بالرمال. ولانلقى قاعاً سهلاً، لذا نعود الى نقطة الإنطلاق، حيث ثمّة قفّة تقوم بمهمة العبور[٢١٥]. نضع أمتعتنا كلها وتعبر الجياد والمياه تغمرها فوق الصدور، ثم نحمل أغراضنا في الضفة الثانية، ونبلغ الخان بعد دقائق.

هاملن متألمّ، ويزداد ألمه رويداً رويدا. أفهم بأنه يوجد هنا، كما في جميع المدن الحدودية الواقعة على الطرق الرئيسة، طبيب أوروبي، فأسألهم أن يقودوني إليه. لحسن الحظ يتكلّم الفرنسية، وهو ألماني. لقد أتمّ دروسه في دوقية أولنبورگ، وإسمه مسيو سآب[٢١٦]. يجب أن أقول مادحاً بأنه قدّم كل الخدمات الممكنة، ولن يقوم بأكثر من ذلك لمواطن من بلده.

إنها الساعة الثامنة حين قدّمت له نفسي. كان قد أوشك أن ينتهي من العشاء. فأدخلني وقدّم لي أولاً كأس خمر، بعد ست عشرة ساعة وأنا فوق الفرس، ولم أذق طعاماً سوى حلوى المن وكأس العرق، فلا عجب أن بدت لي هذه الخمرة سلسبيلا. ثم نعود معاً الى الخان لكي يجسّ هاملن. يخشى من تقرّح في العقب، ويقول بالإستمرار على اللزقة، ويوصي بالإحتراز أثناء المسير قدر المستطاع، وبما إننا نسير

(٢١٥) إحدى العبّارات المعروفة.

(٢١٦) Duché d`Oldenbourg دولة ألمانية سابقة، أصبحت دوقية في أواخر القرن الحادي عشر، ثم دوقية كبرى سنة ١٨١٥. وقد ورد إسم الطبيب (سآب Saab) خطأ في مقدمة هذا الفصل: Saad.

قافلة الموتى

بخطى وئيدة، فسيكون من السهولة بمكان أن نحافظ على الساق ملفوفة بشداد غليظ.

هذا الطبيب هو في خانقين منذ سنة، ويقيم وحيداً تماماً، فالسكان متعصّبون، ورغم العلاجات التي يقدم، ومجاناً في أغلب الأحيان، لم ينجح في كسب مودّتهم. لايتمكّن من التجوال وحيداً من دون سلاح، وقد كاد أن يغتال عدة مرات وهو عائد من عيادة مرضى. وإذا ما حلّ الليل، فلا يسعه أن يخرج إلا وهو راكب حصانه، ويرافقه خادمان. وحين يمضي الى الصيد، يرافقه جنديان وخدم.

٢ تشرين الثاني (نوڤمبر)

أستيقظ في الساعة الثالثة، ونسافر في الخامسة. أربعة جنود، أحدهم عريف، هم تحت أمرتنا. وكان الطبيب سآب[٢١٧] قد قام، عن طيب خاطر، بالإتصالات الضرورية لكي يؤمن لنا حماية جيّدة، حتى إنه أرسل أحد خدّامه للتأكد من إنه لاينقصنا شيء. تبدد الليل سراعاً، ولايقدم المنظر شيئاً يذكر، فهي الصحراء دوماً. لم يبق من أثر للسهل، فنحن نجتاز أول مرتفعات الكتلة الضخمة لكُردستان الفارسي.

(٢١٧) مرة أخرى يكتب بنديه إسم الطبيب خطأ Saad وقد صححناه بما نظنه الصواب (Saab).

نحن على الحدود في الساعة الثامنة، تحرسها سيطرة شرطة (جندرمة) وموظفو مكوس (كمارك)، يسكنون قلعة صغيرة. إن هذه السيطرات مصفوفة على إمتداد مسافة ما، كل خمسمائة متر، للحراسة ومنع قوافل التهريب من العبور. يغادرنا حرّاسنا، فنستمر وحدنا في أرض قاسية وغير مزروعة. صخور صحراوية، وطريق صخري. وفي البعيد تقدّم الجبال مشهداً غريباً لمساحات أراض متوازية ذات ألوان تتغيّر من اللون الوردي حتى الأخضر. نبلغ مجرى ألوند، وترتفع بعد ذلك قرى ذات بضع بيوت مشيدّة بالحصران والقصب.

فجأة تصيبنا رائحة كريهة تزداد كلما تقدمنا، فلا نتأخر أن نلقى أنفسنا وسط قافلة غفيرة من قوافل الموتى.

يعتقد الفرس[٢١٨] إنه للدخول الى الجنّة (الفردوس)، يكفي المرء أن يدفن قرب ضريح أحد الأولياء، سواء كان الحسين أم علياً (رض). وأن الشخص الأكثر شراً، ان استطاع أن يوفرّ ما يدفع به نفقات السفر، بعد وفاته، فدخوله الجنّة أشد تأكيداً من آخر كبير النزاهة إنما مدفون في بلده. لذا تنقل القوافل المنظمة آلاف الجثث من أبعد أطراف فارس إتماماً لهذا الأمر. توضع في صناديق خشبية صغيرة، أو تكون ملفوفة بكل بساطة في بسط أو طنافس، وتعلّق الأجساد إثنين إثنين أو ثلاثة أو أربعة على ظهر حصان. وبسب الشمس المحرقة، بوسعنا أن نفهم الرائحة التي لاتطاق، المنبعثة من هذه الأجساد في خاتمة سفر يدوم عدة أسابيع. والأجساد تنزل وتحمل في كل مرحلة، وكأنها أمتعة حقيقية. وتتوقف هذه القوافل على بعد ما لايقلّ عن خمسة أو عشرة كيلومترات عن القرى التي تسمّمها، تاركة المكان الذي تخيّم فيه فاسداً حتى المساء.

نصل قصر شيرين[٢١٩] في الساعة الحادية عشرة. وكّنا سنحطّ فيها لولا أن الخان كان قذراً جداً. وبما أن الوقت مازال مبكراً، فإننا نقرر القيام بقطع مرحلة أخرى.

نحن الآن في بلاد فارس. ورغم أن المنطقة يسكنها الكُرد، فإنها آمنة نسبياً.

(٢١٨) تركنا تسميتي (فارس) و(الفرس) على وضعهما في الرحلة كلها، كما كتبهما بنديه.

(٢١٩) Kasri - Shrin

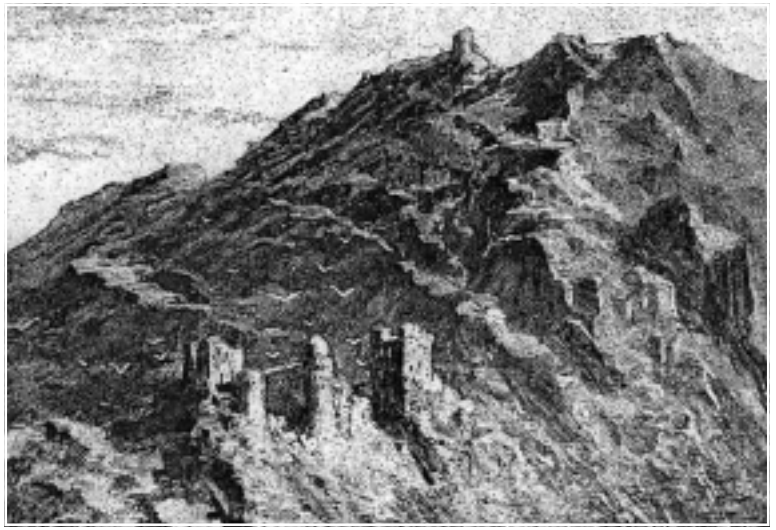

إحدى قلاع كردستان

الأهالي محاربون ومتوحّشون، إنما نزيهون. وبقدر ما يتصّف كُرد الشمال الغربي وكُرد الأتراك بالشدّة والقسوة، بقدر ذلك يتصّف كُرد الجنوب الشرقي وكُرد فارس بالطيب والتسامح. كثيرون هم من مذهب علي الله[٢٢٠].

يكفي أن تتركهم يفعلون ما يشاؤون لكي يتركوك هم أيضاً تفعل ما تريد. التسامح الديني كبير لديهم. ورغم ذلك فصدورهم موغورة ضد الأوروبيين، وأنت تشعر في هذه المدينة الحدودية، على بعد خطوتين من تركيا، بهذا الحقد المزمن، أكثر مما في سائر بلاد فارس. لاينظر إلينا الأهالي نظرة لطف، بل لهم سحنة ساخرة مزعجة.

بينما هاملن في الخان[٢٢١] حيث تستريح الحيوانات، أمضي أنا لدى الوالي. لقد شيّد هذا الوالي، فوق مرتفع يسيطر على المدينة في الجنوب الشرقي، منزلاً جديداً. إنه من الطراز عينه، كما من الحجارة الغبراء نفسها، كسائر البيوت من هذا النوع

(٢٢٠) Ali - Allahi

(٢٢١) يكتبه بنديه هكذا: Khan

التي شاهدناها في كُردستان تركيا، ولدى الحكاريين. فهي بناية مربعة، طولها عشرون متراً، وعرضها عشرة أو خمسة عشر، لها باب واحد للدخول ونوافذ صغيرة، وسطح مستو، وفناء داخلي. تحمل هذه القصور، وهذه البيوت، إسم (خان). وموقع الخان هذا هو بشكل عجيب، لكي يحميه ضد غارات القراصنة. إنه مبني بشكل محكم على مرتفع بسيط، إنما وعر وصعب الإختراق.

يستقبلني الوالي بشكل ممتاز بعد أن أقدم له أوراقي التي لا أظن إنه أستطاع قراءتها، لكنه لاحظ الأختام الرسمية عليها، فمنحني ما طلبت منه بعد جهد جهيد، بفضل ترجمة يوفان وقاموسي الفرنسي-التركي. إنه لمشهد هزلي أن تراني ماسكاً زمام فرسي، ومثقلاً بأسلحتي وسوطي، وأنا أقلّب قاموسي للحصول على كلمة هي غير مفهومة في معظم الأحايين.

أعود الى الخان، وبعد بضع دقائق، أتسلّم من قبل الوالي صحناً يحتوي على فواكه وجبن أبيض وحليب وخبزات رقاق[٢٢٢] لكي أشكره أرسل له بطاقتي مع بعض الهدايا: سكين، بوصلة الإيپينال[٢٢٣]. يعطينا جندياً يرافقنا.

آمر بالرحيل، بيد أن رئيس أدلاء القافلة يرفض بأن يسرج حصاني، ويريد أن يمكث في الموضع. فأقول ليوفان أن يسرج الدّابة، ولكنه ما أن يضع السرج على البغل، إلاّ ويهجم عليه صاحب البغل، فيلقيه أرضاً بكل حدّة، ويسحب سكيناً، مثل وحش، يريد أن يبقر به بطن حصانه لكي لاننطلق. ليس لي إلا الوقت الكافي لكي أقفز فأصدّه عن القيام بهذا الفعل الجنوبي، وبقبضة يدي أجعله يتدحرج في الغدير. يغدو المشهد محتدماً، ويزدحم الناس. فآخذ الرجل من ذراعه، وأقوده لدى الوالي. كان التعيس يرتجف كورقة في مهبّ الريح، لأنه كان يعرف بأنه لن يسلم بأقل من خمس وعشرين ضربة عصا، لذا فلم نكد نسير مائة خطوة، إلا وكنت تراه قد ركع على ركبتي وراح يقبّل قدمي راجياً إياي أن أسامحه. فأعطف عليه. ونعود الى

(٢٢٢) هو المعروف بلافاش Lavash (لواشه): رقيقات خبز غير مختمر، يصفها بنديه في رحلته ص٩٥-٩٦. ولعل المقصود بالحليب هنا اللبن.

(٢٢٣) Epinal مركز مقاطعة Vosges على بعد ٣٦٦ شرقي پاريس. لهذا قلنا: لعل بنديه من إيپينال، إلا إنه كان يسكن پاريس على ما يبدو من مذكراته.

الخان. خلال عشر دقائق، كل شيء جاهز، فنسير في طريقنا.

لدى إجتيازنا طرقات القرية، نصادف على ظهر فرس مهيب نعشاً جميلاً موضوعاً بشكل معاكس، يرافقه فرسان مرتدين ثياباً فاخرة وبعض الجنود. إنه أحد الأسياد الكبار يرافقه أصدقاؤه الى كربلاء حيث قد طلب أن يدفن بعد وفاته. كم من أصدقاء في فرنسا يرافقون أحد أصحابهم حتى المقبرة لو إستغرق الأمر لوصولها أكثر من شهر على ظهور الجياد؟

قصر شيرين قصبة فقيرة على الحدود الفارسية. ورغم مرور (نهر) ألوند فيها، فهي شاحبة وعميقة، لايشاهد فيها أي أثر للنبات

(وتستمر رحلة بنديه في بلاد فارس)*

ملاحق

تضمّ هذه المقتطفات شذرات جمعناها من أقسام مشتتة من رحلة بنديه مما لم يرد ضمن الأقسام المترجمة من الرحلة، وقد رأينا فيها ما يفيد ويكمل سياق الكلام.

أولاً- البريد والسفر بالخيول (الچپر) أو بالقوافل (الكروان)

نستمد هذا المقطع من مطلع الفصل الثالث من رحلة بنديه، ص٤٣-٤٤:

«إن بلاد فارس أشدّ تنظيماً، من عدة نواح، من تركيا. فالسلطة والإدارة فيها أكثر إحتراماً، وكبار الموظفين أشدّ نزاهة، ولو أن نزاهتهم نسبية نوعاً ما، كما أن خدمات البرق والتلغراف الداخلية أكثر ترتيباً، والشرطة أفضل، بحيث يستطاع السفر بأمان، الأمر الذي يتعذر في تركيا.

فقد رتبت الدولة نظاماً بريدياً، نسبة الى طرق المواصلات الرئيسة والبريد والمسافرين، بواسطة الجياد، بحيث يسمح لها أن تمضي بشكل أسرع من سير القافلة (الكروان)، إذ لايمكن للأخيرة أن تمضي أكثر من خمسين كيلومتراً في اليوم، ويكفي لإستخدام (هذه الطريقة السريعة) طلب ترخيص لايرفض البتة. وتسمى طريقة السفر هذه بالچپر (Tchapar) بينما يسمى مكان التوقف، أو المحطة بالچپرخانه. وتدفع

* أنظر محتوى مواد الرحلة.

محطة السفر بالخيول (چپرخانه)

الضريبة لدى كل مرحلة (محطة)، إذ بدفع قران واحد عن الحصان (ومعلوم بأن العملة الفارسية وقيمتها ٠,٨٠ من الفرنك، وجاييس (chais) وقيمته ٠,٥٠ من الفرنك) وذلك للفرستك الواحد (Farstak). ويمثلّ الفرستك (أي الفرسخ) وحدة المسافة الفارسية، وهو قابل للتغير، بحيث إني لم أتمكن قط من التعرّف على طوله الحقيقي، فهو في بعض البلدان بمسافة خمسة كيلومترات، بينما هو ستة أو سبعة في غيرها، لذا فإني أظن بأن أفضل طريقة لإحتسابه إعتبار المسافة التي يقطعها الفارس خلال ساعة واحدة بسير جيد دونما ركض. وقد كان سفرنا الى تبريز بالخيول (الچپر).

السرج الذي أستخدمه هو سرج نظامي قوقازي إشتريته في تفليس، يزعجني قليلاً، لأن وضعه لايسمح لي أن أعتليه كما نفعل بالسرج التي عندنا (في أوروپا)، لأنه مرتفع بشكل شديد، من الأمام والخلف، وبدون تقاسيم، لذا ينبغي أن تكون منتصباً وأنت فوقه، ولايسعك أن تطوي الساق، ولا أن تسير مائل الجسم.

ثانياً- كلمة عن الكُرد وكُردستان

هذا المقطع مستمدّ من الفصل الخامس من الرحلة، ص١٠٨-١٠٠:

«وسط حجارة في حال من الفوضى، حيث الطبيعة قاسية ووحيدة، تقوم تلك القلعة، ونحن نلقى العديد من هذه القلاع في كُردستان. لقد كان يسكنها رؤساء

العشائر وهم أشبه بأسياد صغار يعيشون على سلب القوافل (القرصنة)، أو على فلاحة الأرض، وكثيراً ما يتنازعون فيما بينهم على الأغنام.

والكُرد، رغم نزعة البداهة، يتحلّون بمشاعر أنفة، ويبدون شديدي الإهتمام بكلامهم. فإذا ما وعدك أحد الكُرد بأنه يوصلك سليماً وصحيحاً الى مكان ما، فبوسعك أن تثق بكلامه دونما تخوّف. لكنه، إذا ما رآك غداة إنجازه الوعد، فبوسعه أن يسلبك ويقتلك.

السفر بالخيول (چپر)

ومظهر الكردي جميل، فالأنف طويل، معقوف قليلاً، والفم صغير، والذقن دقيق، والعينان ذكيتان وحادّتان، رغم ما في نظرته من ضياع. له شاربان، ويغطّي رأسه بطاقية من نسيج أبيض (عرقجين)، يلّف حولها مناديل كثيرة، والبنطلون عريض بدون مقاس، مصنوع من قماش من المرعز الأحمر، وكثيراً ما يكون منقوشاً ومخططاً، ويرتدي سترة (جاكيت) تنحدر حتى الوسط، غالباً ما يضع فوقها رداء أطول من السترة مصنوعاً من المرعز، مشغول في الجهة الأمامية بحياكة خشنة (الشال والشبك)، ويلبسون حذاء (بوتين) من جلد أحمر، كعبه مملوء بحدائد...

وخلاصة القول، إن الكُرد طيبوّن، أقوياء، وأذكياء، ذوو شكل جميل، سيكونون، بعد أن تحتويهم الحضارة، أشدّ تفوّقاً من جيرانهم الأتراك والفرس.

ونستمدّ من الفضل الثاني عشر من الرحلة، ص ٣٤٨:

«إن كُرد منطقة كرمنشاه طيبوّن وسهلو الأنقياد. إنهم ينتسبون الى شيعة علي الله، وهذه شيعة متسامحة. يختلطون في بعض القرى مع المسيحيين، ويبدو هؤلاء أقلّ تسامحاً منهم، فإن المسيو فوم (Vaume) (الطبيب الفرنسي هناك) إذ كان

يصل مع خدمه، كان المسيحيون يوعزون الى النساء بالتستّر، بينما كان الكُرد يطلقون نسائهم طليقات. وليس للنساء حجاب».

وبعد أسطر قليلة يكمل بنديه قائلاً:

صاحب الخيل (چپرچي)

«إن قرية هومرمل (Homermelle) الواقعة على طريق سنه (Sinah) هي حقاً المثال الأكمل لقرى كُردستان، وبوسعها أن تكون النموذج.

تشمل القرية مائتين وخمسين بيتاً. ألف ومائتان من السكان، معظمهم كُرد، ومن الشيعة، يعودون بالأصل الى عشائر كرند، كوراهم، كلهور، وبعض البدو المستوطنين هناك منذ القديم.

تبلغ مواشيهم نحو ثلاثمائة رأس حيوان من الماشية، وألف وثلاثمائة وخمسين من الأغنام والماعز، وثلاثمائة حمار. ترعى الحيوانات الأرض بكل هدوء، في أراضي القرية وفي الأعالي. والأراضي جميعها ملك الدولة. تمتلك القرية، كأراضٍ زراعية، مساحة بوسع ستين زوج من الثيران أن يفلحوها بمحراث خشبي كبير، أي بمعدل أربعة الى خمسة هكتارات للزوج الواحد. وتزرع على هذه المساحة خمسمائة بطمن (Batman) من الحنطة، علماً بأن البطمن هو ٣ كيلوغرامات و١٢٠ غراماً، وقد يرتفع في مناطق أخرى حتى يبلغ ستة كيلوغرامات، كما في تبريز. ويزرعون قليلاً من الأفيون، والشعير، وأحياناً شيئاً من القطن، وتعطي الحنطة خمسمائة بدل المائة، وتدّر المائة (بطمن) إثني عشر قراناً والشعير خمسة عشر قراناً (علماً بأن القران الواحد ٠,٨٠ من الفرنك). وقد كان محصول الأفيون في العام الماضي خمسة وأربعين بطماً، وبيع البطمن الواحد بثمانية تومانات (والتومان ٨ فرنكات).

للقرية فواكه، فأهاليها يحصلون على كميات كبيرة من المشمش، والأجاص،

والتفّاح، واللوز، والخوخ، وتزرع الخضراوات التالية: البطاطة، لكنهم لايأكلونها، والحمّص، والبصل، والعدس، والباقلاء، والثوم، والبطيخ، والباذنجان، والرقّي، ويجتنى الجوز وحبّة الخضراء.

والقرية ملك الحاج محمود علي، أحد المواطنين العثمانيين، يمنح الكُرد حق السكن في أراضيه لقاء ثلث الإنتاج. هذه الضريبة الفادحة تشلّ القرية التي ينهكها البؤس والمرض... وقد يصل بعض الملاكين الأثرياء الى تملّك أقسام كبيرة من المحافظات، فإن آغار – حسن يملك في محافظة كرمنشاه أكثر من مائة قرية من مجموع مائتين وخمسين، وبوسع ذلك أن يشكل خطراً على الحكومة.

السرج

ولنأت الى ذكر حياة الأهالي. فإن البيوت مبنيّة بالطين، حول فناء مشترك لكل منزلين، يستخدم للبشر كما للحيوانات. وثمّة فتحة واحدة، بمثابة الباب، تمنح النور للغرفة. وتستخدم حفرة في الأرض وسط الغرفة كموقد وسرير، وثمّة فتحة متروكة في الأعلى فوق الحفرة، في سقف مكوّن من العيدان (المدود)، المغطّاة بتراب مسحوق. وفي الغرفة بعض آنية طينية، ومهد بدائي، ودولاب من الحديد والخشب لغزل الصوف، وسرير من أقمشة خشنة. وبإزاء المدخل فتحة أخرى تؤدي الى الأصطبل حيث يعيش شتاء الناس والحيوانات معاً، وأرضية الأصطبل بدون إنحدار، وهي مشبعة بالبول.

لقد قمت بقياس غرفتين من هذه الغرف. في الأولى كان يعيش رجل وإمرأتان وحماران، طولها ٣,٥م وعرضها ٣م. إنهم في قذارة مرذولة، إنما لايبدو عليهم بأنهم تعساء.

يستخدمون للتدفئة روث البقر المجفف على شكل أقراص، مخلوطة بتبن مسحوق،

إمرأتان كرديتان

معطف كردي

كرديان

يقوم بصنعها النساء والأطفال، وتكوّم مؤونته في زاوية ما أو قرب باب المنزل.

يجلبون الماء من الجبال بواسطة قناة. نظافة الأزقّة معدومة تماماً. والحيوانات الميتة تهمل على بعد ثلاثين خطوة من القرية، فتأتي عليها الكلاب وأبناء آوى والغربان، بهدوء. والأشجار المقطوعة تتهرّأ أمام البيوت.

الخبز هو في الأساس من الغذاء. يصنع من الحنطة والذرّة والبلوط. والطحين الذي يصاغ على شكل أوراق (رقيقات)، يوضع فوق صفائح حديدية (الساج) ويخبز، غير أن العجين لايختمر ولايتكوّن بشكل جيد، لذا يغدو (الخبز) ثقيلا وعسيراً للهضم، فلا يأكل المرء أكثر من سبعمائة وخمسين غراماً من الخبز في اليوم الواحد.

يجمع حليب البقر والماعز في آنية من جلد، ويصنع منه الزبد في حالة الإستحلاب (القشطة)، ويتغذّى الناس باللبن، ولايحتفظون إلا بالمصل (كَرا – الزبدة)، بينما يبيعون الباقي. كما إنهم يبيعون أفراخ الدجاج والبيض، إذ قلما يأكلونها، ويأكلون الرقّي والقرع والبصل والثوم مع خبز يسمونه جيميت (Tchemet) وهو غير اللافاش (لواشه Lavash). أما الرز، على شكل البلاو (Pilaw) فهو صحن ممتاز، لايتناولونه إلا أيام الأعياد.

تذبح القرية كل يوم خروفاً بحجم إثنين وعشرين كيلوغراماً تقريباً، فتشتري كل عائلة نصف بطمن، أي نحو مائتي غرام للرأس الواحد أسبوعياً.

يتكوّن زيّ الرجال من قميص قطني ينحدر حتى السرّة، ومن بنطلون عريض يشدّ أحياناً بالكعب، ومن ثوب كبير مصنوع من القطن المخطط بالأبيض والأزرق أو الأحمر، ويشدّ على النحر بحزام، والخف كأحذية، وقبعة كغطاء للرأس مصنوعة من قماش منفوخ أو مدبب (العرقجين) يشدّ حوله منديل.

أما النساء فيرتدين قميصاً ينحدر حتى السيقان، وقميصاً طويلاً كفلاّحات مصر، ويثبتون في الرأس قماشاً كبيراً بمثابة الغطاء يتحدّر حتى الإكتاف كالشال.

جميع هؤلاء الكائنات قذرون طبيعياً، وذوو رائحة كريهة، وذلك بسبب البؤس. أمّا السحنة فجميلة، وسواء الرجال أم النساء، رغم معيشتهم في أوضاع تاعسة من حيث النظافة والصحة، فهم أصحّاء وأشدّاء. وللنساء ملامح جميلة، وأجسام سليمة

إمرأتان تجرشان القمح

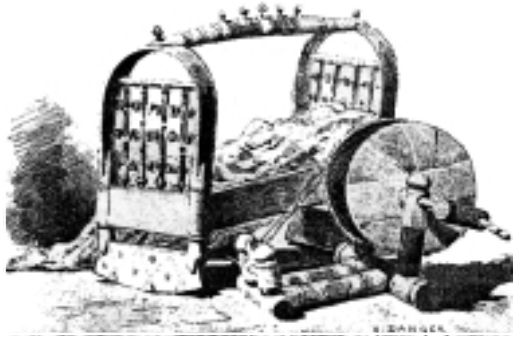

الدولاب والمهد

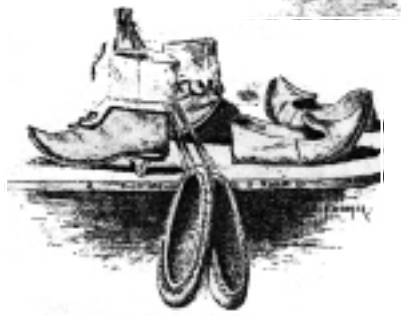

أحذية كردية

التكوين، بل إنهن مغريات. يتزوج الرجال بسنّ العشرين أو الخمسة والعشرين، بينما البنات في نحو الثانية عشرة.

وقد حصلت في قريتين على المعدّل التالي لوفيّات الأطفال. ففي (فتح Fetah) توفي ستة أطفال من عدد سبعة قبل سن الخامسة. وفي (شيراكلي Cheragalli) توفي أربعة أطفال من عدد ستة قبل سن العاشرة.

ومنذ سنتين أنشئت المدارس في عدة قرى، بينما يواظب من مجموع مائة وخمسين طفلاً، أربعة عشر طفلاً فقط، أي أقل من العشر، لذا فإن الأمّية لدى الأهالي مطلقة، حيث إثنا عشر فقط من أفراد القرية بوسعهم أن يقرأوا ويكتبوا، وإثنان يعرفون أن يوقعوا. غير إنه لايجب تعميم هذه الحال على المدن الكبيرة» (ص٣٤٨-٣٥٣).

فهارس الصور والأشكال

١. صورة الرحالة الفرنسي هنري بنديه..... ٥
٢. صورة رفيق الرحالة: أميل هاملن..... ٦
٣. يوفان، طباخ الرحالة..... ١٦
٤. زي نسائي..... ١٨
٥. الزاب الأعلى..... ٢١
٦. حوض الزاب الأعلى..... ٢١
٧. جسر على الزاب الأعلى..... ٢١
٨. إمرأة على ظهر بغل..... ٢٥
٩. قبور مسيحية في كُردستان..... ٢٦
١٠. البلوط..... ٣٠
١١. مخيم أكراد..... ٣١
١٢. فرسان كُرد..... ٣٣
١٣. العمادية..... ٣٥
١٤. قصر الإمارة في العمادية..... ٣٨
١٥. سائس بغال..... ٤٢
١٦. محراث..... ٤٥
١٧. جسر القوارب على دجلة..... ٤٦
١٨. الأسوار والقلعة الرئيسة - الموصل..... ٤٨
١٩. ديوان في مدينة الموصل..... ٥١
٢٠. غليون شيبوك، نرجيله..... ٥٢
٢١. رجل يدخن الغليون..... ٥٣
٢٢. خطوط وطرق سكك الحديد..... ٥٤
٢٣. هودج كبير أو العربة الكبيرة..... ٥٨
٢٤. جمل وهودج..... ٥٨
٢٥. هودج نساء..... ٥٩
٢٦. سوق الغنم - الموصل..... ٦٠
٢٧. جنود قصابون..... ٦١

٢٨. قبور وجامع على دجلة في الموصل..... ٦٢
٢٩. باب لكش في الموصل..... ٦٨
٣٠. لوحة امرأة..... ٧٠
٣١. مخطط خورسباد..... ٧٤
٣٢. سكاكين..... ٧٧
٣٣. خناجر..... ٧٧
٣٤. غمد خنجر..... ٧٧
٣٥. آنية عربية..... ٧٧
٣٦. معطف ملكة كلدانية..... ٧٧
٣٧. مدخل قصر خورسباد..... ٧٩
٣٨. أسد من خورسباد..... ٨٠
٣٩. مشهد من خورسباد..... ٨١
٤٠. مشهد ثالث من خورسباد..... ٨٢
٤١. كتابة بيستون..... ٨٣
٤٢. الكلك..... ٩٦
٤٣. كلك الرحالة بنديه..... ٩٧
٤٤. مخطط الكلك..... ٩٨
٤٥. خارطة نمرود..... ١٠٠
٤٦. مشهد من النمرود..... ١٠٢
٤٧. تكريت..... ١٠٩
٤٨. منظر من تكريت – القلعة..... ١١٠
٤٩. عرب في تكريت..... ١١١
٥٠. القفّة – بغداد..... ١١٣
٥١. القفة في لوح قديم..... ١١٤
٥٢. دجلة بين بغداد والكاظم..... ١١٥
٥٣. بغداد..... ١١٧
٥٤. سوق بغدادية..... ١١٩
٥٥. شارع بغدادي..... ١٢٠
٥٦. خيم أعراب قرب بغداد..... ١٣٠
٥٧. خان بني سعد..... ١٣٤

٥٨. خان من الخارج..... ١٣٥
٥٩. خان من الداخل..... ١٣٦
٦٠. قافلة الموتى..... ١٤٥
٦١. إحدى قلاع كُردستان..... ١٤٧
٦٢. محطّة السفر بالخيول (چبرخانه)..... ١٥٠
٦٣. السفر بالخيول (الچبر)..... ١٥١
٦٤. صاحب الخيل (الچبرجي)..... ١٥٢
٦٥. السرج..... ١٥٣
٦٦. كردیان..... ١٥٤
٦٧. معطف كردي..... ١٥٤
٦٨. إمرأتان كرديتان..... ١٥٤
٦٩. إمرأتان تجرشان القمح..... ١٥٦
٧٠. أحذية كردية..... ١٥٦
٧١. الدولاب والمهد..... ١٥٦
٧٢. خارطة كُردستان وبلاد ما بين النهرين

فهارس الأعلام والأماكن

أ

إبراهيم (عليه السلام): ٨٧، ٩١، ١٠٦
إبن عمر (جزيرة): ٥٠
أتشميازين: ١١
أحشورش: ٨٣، ٨٤
أحمد پاشا الجليلي: ٦٤
أرادن: ٣٩
أرارات (جبل): ١١
آراكس: ١٠٧
أربيل، أربيلا (كوكاميلا): ٨٣، ٩٦
أرضروم: ٤٤
أرمينية: ١١، ١٢
أريفان: ١١
أستانبول (أسطنبول- القسطنطينية): ٧، ١١، ٣٣، ٩٣، ١٢٢
أسرحدون: ٨٦
الإسكندر المقدوني (الكبير): ٨٣، ٨٤
آشور: ٧٢، ٧٣، ٨٠، ٨٦، ١٠٦
آشور أبلط (الملك): ١٠٦
آشور بانيبال: ٨٦
آشور ناصربال: ٨٦، ٩٩
أصفر (الصيرفي): ١١٦، ١١٩، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٨
أغار حسن: ١٣، ١٤، ١٥٣
الآڤيستا: ٨٣
د. أكرم فاضل: ٥٥
أكستافا: ١١
ألتمـاير (المونسنيـور هنري): ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٩، ٦٣، ٩٢، ١١٧، ١١٨
آلتون كوپري: ٩٦
ألقوش: ٤١
ألوند: ١٤٣، ١٤٥، ١٤٩
إمارة بهدينان: ٣٣
أمياتي (الإسم الآشوري للعمادية): ٣٢
أمـيل هاملن: ٧، ٨، ٢٠، ٢٥، ٣٠، ٣٣، ٤٦، ٥١، ٥٦، ٩٩، ١٠٥، ١١٨، ١٢٥، ١٢٩، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤١، ١٤٤، ١٤٧
أمين آغا إبن عبدالله: ٦٤
أنترداد (غدير): ١٥، ٢٤
إنگلترا: ١٢، ٦٩، ٧٢
أواسن (قرية): ١٢
إورمية: ٧، ١٢
أوروپا: ٤٠، ٥٤، ٥٥، ٥٨، ٩١، ٩٢، ١١٦، ١١٨، ١٢٠، ١٢٦، ١٢٧، ١٥٠
إيران: ١١
أيسي سو: ١٢

ب، پ

باب بهدينان (باب الموصل): ٣٣، ٣٧
باب البيض: ٦٤
باب السراي (الإمارة): ٣٣
باب الزيبار: ٣٣
باب سنجار: ٦٥
باب الطوب: ٥٧
باب لكش: ٦٧

بابل: ٧٢، ٧٣، ٨٠، ٨٣، ١٠١
باتوم: ٩، ١١
پـاريـس: ٧، ٨، ١٤، ١٧، ٥٢، ٥٨، ٦٥، ٦٨، ٧٥، ٨٢، ٩٠، ٩٢، ١٢١، ١٢٧
باشطابيا (قلعة): ٦٥
باشكاله: ١٢
باڤاريا: ٩٣
باكو: ١٤
بامرني: ٤١
البحر الأسود: ١١
بدرالدين لؤلؤ (السلطان): ٤٩، ٨٨
برايتي (حي في دهوك): ٤٣
برج الساعة (برج الأجراس): ٥٣
برديك (قرية ومضيق): ١٢، ١٥
برنيه (المسيو): ١١
البصرة: ٨٨، ٩٢، ٩٧، ١٣١
بطرس: ٨، ٩٦، ٩٩، ١٠٥، ١١٦، ١١٩
بعبدا: ٤٨
بعـقـوبة: ٧، ٩٦، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨
بغداد: ٧، ٩، ١٣، ١٧، ٤٨، ٥١، ٥٥، ٦٠، ٦٥، ٦٦، ٧٠، ٨٧، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ١٠٣، ١١٢، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٧، ١٤٠
پلاس (فكتور): ٥٦، ٧٣
بلاد مـابين النهـرين: ٨، ٥٠، ٥٤، ٥٥، ٦٤، ٧٣، ٩٨
بـنـديـه (هـنـري): ٧، ٨، ٩، ١١، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ٢٠، ٢٢، ٢٤، ٢٥، ٢٩، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٦، ٣٩، ٤٤، ٤٥، ٤٧، ٤٨، ٥١، ٥٧، ٥٩، ٦٢، ٦٣، ٨١، ٨٨، ٨٩، ٩٥، ٩٨، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٩، ١١١، ١١٨، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٨، ١٣٠، ١٣١، ١٤١، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٢
بهنام بني (المطران): ٥٩، ٦٠
بوتا (پول أميل): ٥٦، ٧٢
بورغونين: ٦١
بوشهر: ١٣١
بيرتيبه (المسيو): ١١٧
بيروت: ٥٠
بيرون: ٦١
بيزانسون: ٥٠
بيستون: ١٤، ٧٤، ٨١، ٨٥، ٨٦
بيسرات (قرية): ٢٢
بيسون (الأب): ٥٠
بيلات سو: ١٥، ٢٧
بيير دفال (الأب): ٥٠، ٦٢، ٦٤، ٦٦، ٩٢
بيير دي فوصيل: ٥٥

ت

تال (مجرى مائي): ١٥، ٢٠
تبريز: ٧، ١١، ١٢، ١٤، ١٥٠، ١٥٢
تبليس (تفليس): ٧، ١١، ١٤، ٤٢، ١٥٠
تحسين پاشا: ٦٧
تدمر (باليرا): ٤٩، ٦٥، ٨٣، ٩٠، ٩١
تركـيـا: ١٣، ٤٧، ٩٠، ٩٣، ١٠٣، ١٢١، ١٢٧، ١٣١، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩
تكريت: ٩٤، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠
تل التوبة: ٥٥
تلو: ٩٢

التوراة: ٣١، ٤٤، ١٠٦
تول: ٥٠
تيمورلنك: ١١٠

ج، چ

الجامع الأزرق: ١١
الجامع النوري الكبير: ٥٤
الجرجاي: ١٢
الجزائر: ٤١، ٦٥
جزر السندويج: ٨
جعفر الخياط: ٤٧
جفله: ٧، ١١
جولميرگ: ٧، ١٢، ١٣، ١٥، ١٩، ٣٢
جيروم: ٧، ١٢، ١٧
جين شاردن: ٨٠

ح

الحدباء (منارة): ٥٤
حلب: ٤٨، ٦٥، ٧٠، ٩٧
حمام العليل: ٩٤، ٩٨
حمدي بگ: ٦٨، ٦٩
حمرين (جبل): ٩٤، ١٠٨، ١٣٨، ١٤١

خ

خان بني سعد: ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤
خانقين: ٧، ١٢٧، ١٣٢، ١٤٣، ١٤٥
خورسباد: ١٣، ٤٩، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٦، ٩٩
الخوصر: ٤٧

د

داريوسالأول: ٨٤
داريوس الثالث: ٨٣
دبي: ١١
دجلة: ١٣، ٣٢، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٩، ٥١، ٥٤، ٥٥، ٦٠، ٦١، ٦٤، ٦٧، ٧٠، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٨٨، ٩٤، ٩٦، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٨، ١١١، ١١٥، ١١٨، ١١٩، ١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٣٥، ١٣٨
دمشق: ٤٨، ٦٩، ٨٧، ٩٠، ١١٩
دهوك: ٣٢، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٧
دور شروكين: ٧٣
دوفورنو (المسيو): ١٢٦
دومنيك: ٩٠، ٩١
دون جوان: ٦٤
دياربكر: ٥٥، ٦٠، ٦٤، ٦٥، ٩١، ٩٥، ١٢٦
ديالى: ١٣٢، ١٣٥، ١٤٣
دير الربان هرمزد: ٤١
دير المار يونان: ٥٥
دي ريفوار (المسيو): ١٠١
دي لاشوم (المسيو): ١١
ديلافوا (المسيو): ٩٣
دي سارزيك (أرنست): ٩٢، ١١٧، ١١٨
ديلمان: ١٢
ديودور الصقلي: ٧٦

ذ

ر

رابات (قرية): ١٥، ٢٢
ركلس: ٨
روثن (مارگريت): ٧٢، ٧٤
رنار (المسيو): ١٢
روسيا: ١٢، ١٢٧، ١٢٩
رولنصون (السر هنري كريسوك): ٧٢، ٨٠، ٨١
ريباري دهوك: ٤٣
ريباري شكرو: ٤٣
ريج (القنصل البريطاني): ٦٤

ز، ژ

الزاب الصغير: ١٠٨
الزاب الكبير (الأعلى): ٨، ٩، ١٢، ١٥، ١٩، ٢٠، ٢٨، ٣٠، ٣٧، ٩٤، ١٠٤، ١٢٨
زاويته: ٤١
زند (لغة الآڤيستا): ٨٣
زيّا: ٣٢، ٣٤، ٣٦

س

سآب: ١٣٢، ١٤٤، ١٤٥
سامراء (سر من رأى): ٩٤، ١١١، ١١٢
السراي: ٤٣
سراي ألما: ١٢
سرجون: ٧٣
سردارس (قصر): ١١
سردانابال: ٨٦، ٩٩، ١٠٢
سعرت: ٥٠، ٩٥
سعيد پاشا إبن محمد پاشا: ٣٣
سعيد الديوَجي: ٥٨
سلماس (وادي): ١٢
سليمان آغا إبن يونس: ٦٤
السليمانية: ٦٧
سنحاريب: ٨٥، ٨٦
سورية: ٥٠
سوسه: ٧٢
سيد المخ: ١١
سيكونزاك (الأب): ٥١، ٦٠
سيمون (شمعون): ٧، ١٢، ١٧، ١٨، ٢٣، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٦، ٣٩، ٤١، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٥٣، ٥٦، ٩٥
سيوانكا (بحيرة): ١١
سيوفي (مدام): ٩٠
سين (إله آشوري): ٨٦

ش

الشاه: ١٤، ٤٤، ١٢٩، ١٣٠
الشرقاط (قلعة): ١٠٦
شلمنصر الأول: ٩٩
شمسي أدد الخامس (ملك آشوري): ٣٢
شولز: ٨
الشيخ محمد: ٤٣
شيلي: ٤٣

ص

صديق الدملوجي: ٣٣

ض

ط

طرابزون: ١١، ١٠٧، ١٢٦
طهران: ٧، ١٣، ١٤، ٦٦، ١١٨، ١٢٩
طهماسب نادرشاه: ٦٥
طوبيا: ٧٠
طوروس (جبال): ١٥

ظ

ع

عبدالأحد (القديس): ٣٤
عبدالرزاق الحسني: ٨٨

العراق: ٧، ٩، ٤٧، ٦٢، ٧٢
العمادية: ٧، ١٣، ١٥، ١٧، ٢٨، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٦، ٣٨، ٤٠، ٤٣

غ

غضبان الرومي: ٨٨

ف، ڤ

فارس(بلاد فارس): ٨، ١٣، ١٤، ٧٢، ٧٤، ٨٠، ٨٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٣١، ١٤٢، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٩
فاز: ١٠٧
فاطمة بنت محمد: ١١٥
فالي (پيترو دي): ٨٠
الفرات: ١٠٧
ڤرساي: ٧٥
فرنسا: ١٧، ٥٠، ٦١، ٦٦، ٧٢، ٨٥، ٩٢، ١١٧، ١٢١، ١٢٨، ١٤٩
د. فوزي رشيد: ٧٢

ق

قره سراي (دار الإمارة): ٦٥
قزلربات: ١٣٢، ١٤١
قزوين: ١٤
قصر إيماديي: ١٣
قمبيز الثاني: ٨٤
قوجانس: ١٣
القوقاز: ٧، ١٤
قوينجق (تل): ٤٩، ٥٥، ٧٢، ٧٣، ٧٩، ١٠٠

ك، گ

گاره: ٣٧
الكاظمية: ٩٤، ١١٥، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥
كالح: ١٠٦
كانو: ١١
كُردستان: ٧، ٨، ١٢، ١٣، ١٤، ٩٦، ١٠٧، ١٢٢، ١٢٣، ١٤٥، ١٤٨، ١٥٠، ١٥٢
كركوك:٦٧، ٩٦
كرمنشاه: ٧، ١٣، ١٤، ٧٤، ١٢٧، ١٣٢، ١٣٧، ١٥١، ١٥٣
گروتفند: ٨١
گري باصي: ٤٣
كفري: ٩٦
كندرفان: ١٢
كنيسة اللاتين: ٥٣
كورش إبن قمبيز (الكبير): ٨٣، ٨٤
كورش الصغير: ٨٣
كوري كفانا: ٤١
كوكتجا (بحيرة): ١١
كيش: ٧٢
گيلان: ٧، ١٤

ل

لارسا: ٧٢
لايارد (هنري أوستن): ٧٢، ٧٩
لبنان: ٤٨
لمي (الأب): ٣٤
لندن: ١٠١
لونكريك: ٤٧
لويس الرابع عشر: ٧٥
الليدي درووز: ٨٨
ليون (المونسنيور): ٥٠

م

مار شمعون: ١٢

ماركو بولو: ٥٥
مارند: ١١
ماير (المسيو): ١١
مالبرتوي: (المسيو): ١١
متينا: ٣٧
محمد (ص): ٨٨، ١٠٢
محمد آغا الصوراني (ميري كوره): ٣٣
د. محمود الأمين: ٧٢
مراغا: ١٢
مرسيليا: ٨، ٣٩
موسى الكاظم (الإمام): ١١٥
موش: ١٢٦
الموصل: ٧، ١٣، ٣٢، ٣٣، ٣٦، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧٢، ٧٥، ٧٦، ٨٧، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٥، ١٠٧، ١١٨، ١٢٣، ١٢٦
ميداني نو (ساحة): ١٣
ميونيخ: ٩٣

ن

ناجية مراني: ٨٨
نانو نوري: ٨، ١١٦، ١١٨، ١١٩، ١٢٤، ١٢٥، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠
نزار آغا (الجنرال): ٨
النمرود: ٧٢، ٧٣، ٧٨، ٩٩، ١٠٤، ١٠٧
نيقولا سيوفي (مسيو): ٤٨، ٤٩، ٦٥، ٦٦، ٦٩، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ١١٩
نينوى: ١٣، ٤٥، ٤٧، ٤٩، ٥٥، ٦٤، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٦، ٨٠، ٨١، ٨٦، ٩٩، ١٠٧، ١١٢
نيويورك: ٦٦

هـ

هافر: ٦٦
هرباز: ١٠٧
همدان: ١٤، ٧٤
الهند الشرقية: ٨٠
هيرودوت: ٤٤، ٧٦، ٨٤،

و

والس بج (السير): ٧٢
وان: ٧، ١٢، ١٣، ٢٧، ٣٢، ٤٢، ٥٣، ٧٤، ٨٦، ٩٥
وليم كنت لوفتس (السير): ٧٢

ي

اليابان: ١٤
يحيى أبي القاسم (الإمام): ٨٨
يوحنا الحبيب (المار): ٥٠
يوحنا المعمدان (المار): ٨٨
يعقوب (عليه السلام): ٨٧
د. يوسف حبي: ٧٤
يوفان (الطباخ): ٨، ١٦، ١٧، ١٨، ٢٣، ٢٧، ٢٩، ٣٠، ٣٦، ٩٨، ٩٩، ١٠٤، ١٠٦، ١١٦، ١١٩، ١٣٢، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٠، ١٤٨
اليونان: ٨٣، ٨٦
يونس (النبي): ٥٥، ٥٦

محتوى الكتاب

مقدمة المترجم 7
محتوى مواد الرحلة بنوع كامل 11
من جولميرگ الى العمادية 15
من العمادية الى الموصل 22
الموصل – نينوى – خورسباد 49
من الموصل الى بغداد 94
بغداد 116
من بغداد الى كرمنشاه 132
ملاحق 149
فهارس الصور والأشكال 158
فهارس الأعلام والأماكن 161